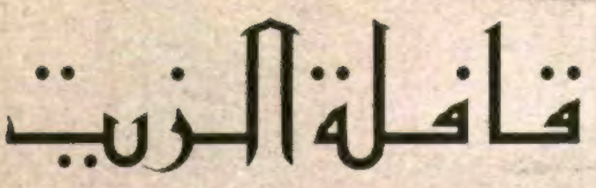


ذو القعدة ١٣٨٨ شباط - فبراير ١٩٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

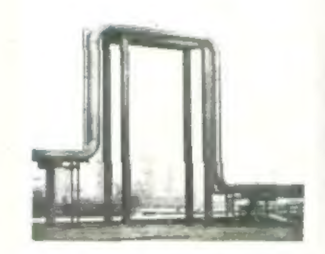
العدد الحادي عشر المجلد السادس عشر

تصدر شهرياً عن :
شركة الزيت العربية الأمريكية
لموظفي الشركة - توزع مجاناً

رئيس التحرير والمدير المسؤول منصور مدني
المحرر المساعد عوني أبوكشك

العنوان : صندوق رقم ١٣٨٩
الظهران ، المملكة العربية السعودية

صورة الغلاف



للتقلبات الجوية الطارئة تأثير كبير على أعمال صناعة الزيت . وتمثل هذه الصورة مشهداً لعاصفة رملية تكاد تحجب الرؤية عن معمل غاز البترول السائل في رأس تنورة الظاهر في الخلف(راجع مقال دراسة الأحوال الجوية).
تصوير : ب. مودي

محتويات العدد

الكاتب الصفحة

حسامٌ .. أم جلال ؟!

— أترى قد نجحت العملية أيها الطبيب ؟
— ذاك أملي .. وعلى كل فسنعرف عنها بعد لحظات . أنت تعلمين — ولا شك — أن هذه ثالثة عملية من نوعها تجرى لانسان .. لقد كان النجاح في الثانية جزئيا ، ولم يحالفنا الحظ في الأولى .. بيد أننا نأمل أن نحقق ما نصبو اليه هذه المرة .
— حقق الله آمالنا جميعا ..

* * *

— أواه ، ان صداعا شديدا يؤلمني ، وكأن مطارق هائلة لا تني تطرقه بعنف .. أين أنا ؟.. من أنتم ؟
— عزيزي حسام ، الحمد لله على سلامتك . لقد كنت قلقة عليك كل القلق ..
— حسام !.. من حسام ؟.. من أنتم ؟
— من حسام ؟! حسام أنت بلا ريب ، وأنا زوجتك لمياء ، وهذا صديقك الطبيب المشهور عادل ..
— زوجتي !.. الطبيب !.. وهل أنا متزوج ؟.. منك أنت ؟..
— نعم يا عزيزي .. ألا تذكر ؟
— لست أفهم شيئا .. أواه ، ان رأسي يؤلمني بشدة ..
— وهذه طفلتنا رباب . أنظري يا رباب لقد شفي والدك ولله الحمد ، وغدا سيعود الى المنزل ونمرح كعادتنا ..
— ولي طفلة أيضا !.. هذا الألم في رأسي يكاد يقتلني .. لماذا أنا هنا ؟
— لقد أتينا بك الى المستشفى ليعالجك الدكتور عادل عقب حادث الغرق الذي كدت أن تذهب ضحيته .
— حادث !.. مستشفى .. طبيب !.. زوجة !.. طفلة !.. لا أفهم شيئا .
— ما باله — ترى — أيها الطبيب ؟
— انه يفكر بعقل جلال الذي لم يتزوج قط .. فلا يغربن هذا عن بالك .
— وما العمل ؟
— عليك أن تخبريه بدقائق حياته الماضية — أقصد حياة حسام — حتى يلم بها جيدا ، وعلينا أن نجعله يعتادها شيئا فشيئا . ثم عليك أن تراقبي جميع تصرفاته وتخبريني عنها أولا بأول . ان عودة زوجك الى حياته العادية يتوقف الى حد كبير على مدى ما تبذلينه من جهد .. وهو أمر اعلم أنه ليس بالهين .

* * *

كان ذلك بعد حادث الغرق الذي كاد يودي بحياة حسام ، وقد انقطع ورود « الأوكسجين » الى دماغه لمدة دقائق قليلة كانت كافية لتدمير الدماغ ، وان بقي هو حيا . فكان لا بد ، من نقل دماغ انسان آخر توفي حديثا الى رأس حسام .
والآن ، وقد افترضنا نجاح هذه العملية من الناحية الفسيولوجية ، ترى كيف يكون شعور حسام حيال زوجته وطفلته والأقربين من أهله ؟ أبقلب حسام يتصرف أم بعقل جلال ؟ وهل القلب مجرد مضخة خالية من الشعور ، أم انه مفعم بالوجدان والاحساس ، كما يقول بذلك الكثرة الكاثرة من العلماء ؟ وكيف يواجه حسام حياته العامة ؟ هل سيعود الى سابق عمله ، أم انه يجد نفسه أكثر تفهما لعمل جلال ، ويجد هذا العمل أكثر ملاءمة له ؟.
أسئلة عديدة دارت بخلدي بعد أن قرأت نبأ مفاده أن العلماء عاكفون هذه الأيام على إجراء تجارب لنقل دماغ حيوان الى آخر ، تمهيدا لإجرائها آخر الأمر على الانسان . وقد نجحت بعض تلك التجارب عندما أجريت على الكلاب والقردة .
وبعد ، فقد يأتي يوم نرى فيه المرء يضرب في مناكب الأرض ولم يبق فيه من أعضائه الأصلية الا النذر القليل .. وقد نقل اليه قلب هذا ، ودماغ ذاك ، ورئتي ثالث ، وكبد آخر . فاذا سلمنا بجدوى ذلك من الناحية العلمية ، فما يكون أثره — ترى — على حياة الانسان وعلاقته بغيره من بني البشر ؟ أيحفظ الود لأهله الأسبقين — من أنجبوه ومن هو أنجب — أم تراه يعزف عنهم ويميل الى أهل من يفكر بدماغه ، أو من يتنفس برئتيه ، أو من كبده بين أضلعه ؟ ■

رئيس التحرير

نقد يهدم، ونقد يبني..

بقلم الدكتور زكريا ابراهيم

هناك مثل فرنسي معروف يقول: «النقد سهل، والفن صعب»، ولعل الأصل في هذا المثل هو الخلط بين «النقد» و«الانتقاد»، اذ قد يقع في ظن الكثيرين أن كل مهمة النقد لا تكاد تعدو عملية البحث عن المآخذ، والعمل على تصيّد العيوب. ولا غرابة — بعد ذلك — في أن يكون النقد سهلا، ما دامت الوظيفة التي يضطلع بها هي تلك المهمة السلبية اليسيرة: مهمة الانتقاد، والهدم، والتقويض. ولكننا لو أنعمنا النظر الى الدور الحقيقي الذي لا بد للنقد من القيام به، لأدركنا أنه كثيرا ما تكون مهمة الناقد أعسر من مهمة الفنان نفسه. ولن يتسنى لنا أن نفهم دور «النقد» على حقيقته، اللهم الا اذا نجحنا أولا في التمييز بين ضربين من النقد: نقد يهدم، ونقد يبني..

وهنا تحضرني قصة ذلك الكاتب الأديب، الذي قضى أكثر من ست سنوات في تأليف كتاب ضخم عن تيارات النقد الأدبي، ثم ذهب بنتاج فكره الى صحفيّ مشهور يحرّر باب أخبار الأدب بصحيفة كبرى. وكانت مفاجأة عظيمة له أن يقرأ في اليوم التالي، على صفحات الجريدة، نقدا عنيفا لكتابه الجديد بقلم الكاتب الصحفي الكبير. ولم يكن من المعقول — بطبيعة الحال — أن يكون الناقد الألمعي قد قرأ الكتاب كله، بل لم يكن من المحتمل أن يكون قد ألم — على أقل تقدير — بالمواضيع التي تطرّق لدراستها صاحب الكتاب، ولكنه مع ذلك استباح لنفسه أن ينال من جهد الكاتب، وراح يوهم القارىء بأن الباحث لم يعن نفسه مشقة التمحيص والدراسة.

وليس من العسير على أي ناقد — اذا كان رائده اطلاق الحكم على عواهنه — دمغ أي عمل أدبي بطابع التفاهة أو النقص أو العجز أو القصور. ولكن من المؤكد أن القارىء الذي يطالع أمثال هذه المقالات النقدية قلما يرتاح الى «النتائج» الهدامة التي يخلص اليها أصحاب تلك المقالات، لأنه يشعر في قرارة نفسه أنها لا تزيد عن كونها مجرد نتائج تعسفية اعتباطية، ليس لها أي سند من عقل أو منطق أو جدل. والحق أننا هنا بازاء «نقد هدام» لا يراد من ورائه الوصول الى أي تواصل عقلي، ولا يقصد منه بلوغ أية حقيقة، بل تكمن من ورائه رغبة الناقد في تأكيد ذاته، وحرصه على الظهور أمام القارىء بمظهر المفكر الموسوعي، الذي يسع علمه كل شيء. ولا جدال في أن النقد الذي تتكفل بتفسيره بعض دوافع شعورية — أو لا شعورية — في نفس الناقد، دون أن تكون له أية أسس ملموسة في صميم العمل الأدبي المراد نقده، انما هو في الحقيقة «نقد هدام» لا يمكن أن تكون له أدنى قيمة في مضمار «الأحكام التقويمية» بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة.

وربما كان أخطر ما في «النقد الهدام» أنه نقد انفعالي يستند الى عواطف الناقد، ويرتكز على مزاجه الشخصي، فهو قلما يتلاقى مع الكاتب فوق أرض مشتركة. وليس من شك في أن الناقد الذي يصدر أحكامه عن «معادلته الشخصية» (على حد تعبير علماء النفس) حر في أن يقول ما شاء كيفما شاء، ولكن مثل هذه الحرية لا يمكن أن تعني في الحقيقة «حرية تفكير Freedom of thought» بل هي تعني «تحررا من كل تفكير Freedom from thinking».

والواقع أن حرية التفكير لا تعني أن يكون لأي فرد الحق في أن يصدر حكمه على أي شيء، بل هي تعني أن يكون للفرد رأيه فيما سعى الى فهمه وحرص على دراسته. ومعنى هذا أن الحق في ابداء الرأي مقرون بالجهد المبذول في دراسة الموضوع المراد الحكم عليه. وأما أن يصدر الناقد رأيه في موضوع لم يسبق له دراسته، فهذا ما يجعل من النقد «حديثا اعتباطيا» لا ضابط له، أو «كلاما عفويا» لا طائل تحته. وحين يقول الناقد انه كان «يفضل» كذا أو كذا، بدلا من كذا أو كذا، دون أن يدعم هذا «التفضيل»

بأي تدليل أو تعليل فانه عندئذ ينطق بكلام عاطفي صرف ، لا قيمة له على الاطلاق في مضمار النقد . ونحن نطلق على مثل هذا النقد اسم « النقد الهدام » لأننا نعتقد أنه يخلّ بموازين النقد ، دون أن تترتب عليه بالضرورة أية فائدة ايجابية ، سواء أكان ذلك لدى القارىء ، أم لدى الكاتب نفسه .

والحق أن كلا من الكاتب والناقد على موعد مع القارىء ، وهما يحاولان الأخذ بيده من أجل بلوغ الحقيقة . فلا بد لكل من الكاتب والناقد من أن يتلاقيا فوق « أرض مشتركة » حتى يكون في تلاقيهما ما يساعد القارىء على الاهتداء الى بعض خيوط من النور . وحين يكون النقد « نقدا بناءا » يجد القارىء نفسه بازاء « معرفة حقيقية » ، تتولد عن تجاوب « الحقيقة » الكامنة في نفس الناقد مع « الحقيقة » الكامنة في نفس الكاتب . وليس هذا التجاوب سوى مجرد مظهر من مظاهر ذلك « التواصل الفكـري Intellectual Communication » الذي لا قيام للفن أو الأدب أو الفكر بدونه . ولو أننا تذكرنا أن مهمة الكاتب هي حفز الناس على اثارة بعض المشكلات الهامة ، لا تزويدهم بأجوبة حاسمة على كل أسئلتهم ، لكان في وسعنا أيضا أن نقول أن مهمة الناقد هي النفاذ الى هذه الدوامة الفكرية التي تطوي في تضاعيفها كلا من الكاتب والقارىء ، من أجل العمل على وضع المشكلات وضعا حسنا ، والمساهمة في اقامة الأسس السليمة للبحث الحر النزيه . فليس « الناقد » مجرد « دخيل » يقحم نفسه على هذه العلاقة الفكرية المباشرة التي تنشأ بين الكاتب والقارىء ، بل هو نفسه « قارىء » قد أخذ على عاتقه ، أولا وقبل كل شيء ، أن يتعاطف مع الكاتب من أجل النفاذ الى صميم فكره ، والوقوف على حقيقة مراميه . ولكن تعاطف الناقد مع الكاتب ليس مجرد تعاطف انفعالي ، بل هو تعاطف عقلي . ومن هنا فان النقد البناء كثيرا ما يكون بمثابة علامات استفهام يثيرها الناقد حول بعض ما سكت عنه الكاتب ، أو ما لم يحسن التعبير عنه ، أو ما فاته التوقف عنده ... الخ .

أن أنظار المفكرين والأدباء قلما تخلو من فجوات ، وهوات ، ومتناقضات ، فليس من حرج على الناقد اذا هو عنى نفسه بتسليط بعض الأضواء الكشّافة على أمثال تلك السقطات الفكرية أو الزلات القلمية . والناقد حين يفتح صدره لكافة الأدباء والكتاب ، فليس معنى هذا أنه يسلّم تسليما بكل ما يقولونه ، أو انه يتابعهم حذو النعل بالنعل في كل ما يذهبون اليه ، بل معناه أنه يفتح لهم « حسابا » — ان صح هذا التعبير — في سجلّ « تواصله الفكري » . وليس أيسر على الناقد — في بعض الأحيان — من أن يتصيّد المآخذ والعيوب لهذا الكاتب أو ذاك ، ولكن الحوار الأدبي الحقيقي انما هو ذلك الذي يستند الى رغبة صادقة من جانب « الناقد » في العمل على تفهّم وجهة نظر « الكاتب » ، فلا يكون « النقد » عندئذ سوى أداة فكرية فعّالة من أجل توطيد دعائم الوصال الفكري بين الناس .

وحسبنا أن نمعن النظر الى « النقد الهدام » لكي نتحقق من أنه معول يمسك به الناقد لهدم كافة الجسور بين الكاتب والقارىء ، بدلا من أن يأخذ بيد القارىء من أجل بلوغ الحقيقة التي أراد له الكاتب أن يطأ أعتابها معه . ولا شك أن الناقد الذي يكرّس كل جهوده لهدم « الحقائق البشرية الناقصة » التي طالما أضنى الكتّاب أنفسهم في سبيل العمل على ابرازها ، انما ينسى أو يتناسى أن كل ما يصل اليه البشر من « حقائق » لا بد من أن يجيء مدموغا بطابع النسبية فيما يتعلق بالقصور والعجز . فالناقد الذي يأخذ على عاتقه هدم « الحقائق الصغيرة » التي وصل اليها الكاتب يضع حجابا ضعيفا أمام القارىء كي يحول بينه وبين رؤية تلك الأضواء الخافتة التي قد ترد اليه من انسان آخر . ولا شك انه حينما يكون لدى الكاتب ما يقوله ، فليس من حق أي ناقد أن يقف حجر عثرة في سبيل وصول « الكلمة » التي يريد الكاتب أن يقولها ، الى أذهان جمهرة القراء . صحيح أن الكاتب نفسه قد لا ينجح تماما في توصيل خواطره وأفكاره الى الآخرين ، ولكن مهمة الناقد عندئذ تكون في العمل على احالة « العائق » الى « واسطة » ، بدلا من احالة « الواسطة » الى « عائق » . وهذا ما نطلق عليه « النقد الايجابي » أو « البنّاء » .

أننا نخطىء كثيرا لو توهمنا أن هذا النوع من النقد عمل يسير يستطيع أن ينهض بـه أي أديب قد حصّل قسطا غير قليل من الخبرة الفنية أو الأدبية . فالواقع أن « النقد البنّاء » يستلزم درجة عالية من التجرّد أو الانفصال ، فضلا عن أنه يفترض لدى صاحبه قدرة غير عادية على التمييز أو الادراك الحدسي .

ونحن نلاحظ — في العادة — أن النقّاد ميّالون الى تقييم الأعمال الأدبية بالاستناد الى سمعة أصحابها أو مدى شهرتهم ، فليس أعسر على الناقد النزيه من أن يواجه بصراحة آراء الناس وأحكام الجماهير ، لكي يعلن على الملأ حكمه الصائب دون تحيّز أو محاباة . وحينما ينظر الناقد الى العمل الأدبي بوصفه « موضوعـا » مستقلا ، له كيانه الخاص ، وبناؤه الفني المعين ، فانه عندئذ لا بد من أن يجد نفسه مضطرا الى التجرد من ذاته ، والتحرر من أفكاره المسبقة ، والتحلّل من شتى الآراء الفنية الذائعة ... الخ . ومن هنا فان « العمل الفني » لا بد من أن يبدو للناقد كأنما هو وحده « كل شيء » ، في حين ينبغي أن تبدو له « ذاته » وكأنما هي « لا شيء » . ولا شك أن هذه القدرة الموضوعية على التجرد ، هي التي تخلق من « الناقد » انسانا مرهفا ينفذ بادراكه الحدسي الى جوهر « العمل الفني » ، ويمتد ببصره الى « القيم الجديدة » التي قـد لا يقدرها الا جيل لاحق أو عصر متأخر .

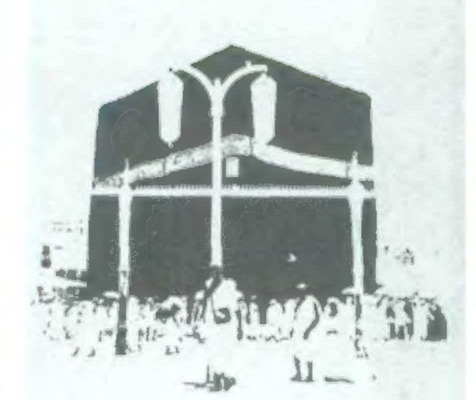
ونعود فنقول أن النقد الحقيقي أعسر بكثير من الفن ، لأن النقد ليس مجرد ثمرة من ثمار الذوق أو الأصالة أو الابداع ، بل هو ثمرة من ثمار الصدق أو النزاهة أو القدرة على التجرّد . وعلى حين أن القصائد أو الروايات أو القصص هي في الغالب وليدة الخيال ، والرغبة ، والذاكرة ، والحب ، والكراهية ، وأحلام اليقظة ، وشتى خبرات الحياة ، نجد أن الدراسات النقدية هي وليدة العقل ، والحدس ، والقدرة على التمييز ، والمهارة العقلية في اكتشاف العلاقات الخفية ... الخ .

وليس من شك في أن صناعة النقد ، التي تقوم أولا على قول الحق ، لا بد من أن تبدو صناعة عسيرة في عالم يحفل بالمفارقات ، وشتى ضروب اللبس . ولعل هذا هو السبب في أنك قد تجد في المجتمع الواحد العشرات من الكتّاب ، والشعراء ، والقصّاصين ، ولكنك لن تجد فيه سوى عدد قليل جدا من النقاد . ولا نرانا في حاجة الى القول بأننا نعني بالنقد هنا ذلك النقد البنّاء الذي يكشف للقارىء عن آفاق جديدة من الخبرة البشرية ، ويأخذ بيده لمساعدته على رؤية جوانب أخرى من الحقيقة . فلا شك أن الناقد الناجح ليس هو ذلك الذي يملك من البراعة ما يمكنه من اقناعنا بما يريد ، بل هو ذلك الذي يملك من النزاهة ما يسمح له باظهارنا على ما هو كائن .

مشاهد من تاريخ مكة ٩

عزم وثبات

بقلم الاستاذ احمد السباعي



أوعجبت أن يصمد محمد لكل ما حدثتك من ألوان الأذى ؟

— اذن فاسمع :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم .

« ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا . لقد اضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا . »

ذلك هو عقبة ابن ابي معيط تبع النبي صلوات الله عليه وأسلم أمره اليه ، فاستاء صديقه أبيّ بن خلف ، فحلف أن لا يكلمه . فارتد عقبة ، وشرع يؤذي النبي ليثبت انه على دين آبائه ، ويرضي فلانا خليله .

وأحسبني لست في حاجة لأن أصور لك مبلغ الأذى وقد طالعتك نماذجه . لا ولست في حاجة لأن أحدثك عن مدى ما توسعت قريش في نطاقه ، فأنت — ولا أشك — قد قرأت قصص أصحابه الضعفاء ، وما نالهم من ألوان التعذيب في أساليب يشيب لهولها الولدان .

ألم يأتك نبأ الذين كانوا يجرجرون الى البيوت ليجلدوا بالسياط حتى يغيب صوابهم ؟

ألم يأتك نبأ الذين يصفدون بالحديد ويعذبون بالكي ؟

ألم يأتك نبأ المرأة التي جالدت تحت مطارق التعذيب حتى أسلمت لله روحها ؟

ألم يأتك نبأ بلال وما قاساه من ثقل الصخر فوق صدره وما عاناه من حمارة القيظ في جسده العاري ؟

ألم يأتك نبأ أبي بكر وما كان يحز في نفسه وهو يشهد تعذيب الموالي فلا يملك الا أن يغري سادتهم بالمال ليشتريهم فيعتقهم ؟

أولئك صفوة سمت أرواحهم وفنت حقائقهم في ملكوت أعلى مما تتخيل .

والآن .. هل لك أن أمضي وإياك لنتابع بعض مباذل قريش السفيهة .

ولعلك تسألني الى أين ؟

سوف لا أكلفك عنتا ، فهذه دائرة الوليد ابن المغيرة المخزومي على كتف هذه الثنية الصاعدة أمامنا الى مطالع قعيقعان .

أترى هذا الجمع الحاشد من صناديد قريش يترجل على بابه ؟!

انهم ولا ريب في أمر جلل ، فقد بات يقض مضاجعهم أمر محمد ، وباتوا ولا حديث لهم الا أن يبتّوا في شأنه بأمر حاسم ، والا ضاعوا وضاعت آلهتهم .

لا ، لا تتلكأ .. وهلم لنختلط بهم من حيث لا يشعرون ، فدارة الوليد مفتوحة لكل طارىء ، ومجلسه لا يفرق بين غريب أو قريب .

ما بالك تتردد .. هذه الأريكة الدنيا .. تعال نقتعدها ، ودونك فاسمع ما يتحاورون :

— يا ابن المغيرة ما يمنعنا نذيع أن محمدا كاهن .

— لست أرى هذا فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه .. أفلا ترى هذا يا كعب ؟

— أرى ما تقوله حقاء فدعونا نذيع أن محمدا مجنون .

— لا .. ولا هذا ، فقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا وسوسته . هات ما عندك يا أبا سودة .

— عندي أن نقول هو شاعر .

— لا .. ولا هذا ، فقد عرفنا الشعر كله رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه . لا .. انه ليس بشاعر . فما تقول أنت يا مناذر ؟

— أرى أن تشيع انه ساحر .

— مهيم .. ما هو والسحر ؟ لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم .. وهل عندك ما تقوله يا حازم ؟

— أرى أن أقرب القول ما قاله مناذر فأشيعوا أن ما يقوله هو السحر يفرق به بين المرء وأبيه وأمه وأخيه .

أرأيت يا صديقي كيف تحاك المؤامرات ، وكيف تدس الدسائس ألا صدق الله فيما يقول ، جل شأنه :

« فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فاني معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون . »

بلى انهم طاغون .. فهيا ولنغادرهم .

ولكن الى أين ؟

أحسبك ضقت بمكة ، كما ضاق المبتلون بها من أصحاب النبي ، فأنت لا تمر بسقيفة أو عرصة أو تدلف الى سوق حتى تصادفك مآسي المعذبين من ضعفاء المؤمنين .

ومع هذا فليت الأمر يقتصر على مكة ، فقد حدث محدث أن رسول الرحمة عقد آماله بهداية ثقيف ، فركب طريقه اليهم وهو يرجو النصر لدين الله ، فلقي منهم أنكى مما لقي من مشركي مكة .

واستطاع سدنة (اللات) أن يستفزوا عبادها ليتجمهروا ضده ويثيروا من الشتائم الشنيعة ما لا تطاق .

قال المحدث : وتضاعفت اساءات سفهائهم يوما فتطاول جهلاؤهم وعبيدهم عليه بالسباب وأخذوا يرمونه بالحجارة والحصى ، وصاح به صائح من أوباشهم : « أما وجد الله من يرسله غيرك ؟ »

ولم يجد مناصا الا أن يلجأ بحائط لعتبة بن ربيعة في المثناة ، فعمد الى ظل شجيرات فيه وراح يشكو حزنه الى مولاه : « اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين . أنت رب المستضعفين وأنت ربي . الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني أم الى عدو ملكته أمري ؟ ان لم يكن بك علي غضب فلا أبالي !! »

أسمعت يا صاحبي .. انه لا يبالي .. لا يبالي جوعا ، ولا يبالي أذى ولا هوانا !! لا .. ولا يبالي ملء السموات والأرض خلقا يتضافرون على كيده أو يجتمعون على حربه !!

هذه قلوب عامرة ، وهذا ايمان لا يتذوق حلاوته الا نذر من المصطفين الأخيار . لا يبالي سوى غضب ربه ، وهو رسوله وصفيه ، وقد دان له كل ذي طول ، واعترف به سيدا كل ذي حول في أكثر أقطار الأرض . ولو تمنى على ربه أن يطبق عليهم الجبال ، لفعل .

قال المحدث : وأشرف أبناء لربيعة من نافذتهم على الموقف ، فأخذتهم الشفقة على ما يعاني ، فأهابوا بغلامهم النصراني « عداس » أن يحمل اليه قطفا من العنب .

ومضى «عداس» فيما أهابوا فما كاد يضع العنب على يديه ، حتى استفتح رسول الله عند أول لقمة باسم الله .

وهال «عداس» ما سمع فما عهد من يقول هذا في كل من عرف من قبائل الطائف .

وتبين النبي دهشته فيما رأى من ملامحه ، فسأله أن ينتسب . فقال : أنا نصراني من أهل نينوى .

قال النبي : تلك قرية الرجل الصالح «يونس ابن متى» .

— وما يدريك ما يونس بن متى ؟

— ذاك أخي كان نبيا وأنا نبي !!

فترك هذا أثره في نفس «عداس» ، فلم يملك أن انكب على النبي يقبل كتفيه ويديه .

وراع الأمر أبناء ربيعة فصاحا بعداس أصبأت يا هذا ؟ أم استطاع صرفك عن دينك ؟

ولكن عداس كان أثبت من أن يأخذه الصياح ، فظل ذكره حيا بحياة التاريخ .. وهذا أثره يعيش اليوم في « المثناة » شاخصا في صورة مسجد يطلقون عليه مسجد عداس ، بعد أن اندرس أسياد عداس ، وامحى ذكرهم ، ونسي الناس كل ما له علاقة بأمرهم .

وبعد ، فهل ضاقت بك الطائف أم ضقت بها ؟

لنستأنف اذن عودتنا الى مكة ، فقد توافرت أخبار القبائل عن أحداث جديدة بدأت تموج في بطحائها على اثر عودة النبي اليها .

لنبدأ اذن بالمسجد ، نتنسم أخبار ما حدث قبل أن نستقبل بيوتنا .

أنظر .. ماذا أرى ؟ انهم يتجمعون حلقات في ظل الكعبة . لا أحسبهم الا في أمر جلل .. فتعال نستدرج أخانا البدوي هذا القادم الينا

— ما خطبهم يا أخا العرب ؟ أنزلت بهم نازلة ، أم حاقت بهم حاقة ، أم أوذوا في أوثانهم وأهينوا فيها ؟

— أبدا .. فالأمر أيسر من هذا ، لقد أسري بالنبي وعرج به الى السماء ، فما كاد أن يعود حتى شرع يصف لهم ما رآه في السموات . وزاد فدلل على اسرائه بابل .. رآها في طريق عودته . وقال انها ستصبح من الغداة في مكة . رغم انها أصبحت ، فبرهنت على صدق دعواه ، أبى أبو جهل الا ان يجعل من الأمر أحدوثة ، وأن يجمع القوم تلو القوم ليسخر بما سمع !!

وها قد مضت أيام ، وهم يعيشون في هذا المرج بين مكذب ومصدق .. الا ساء ما يفعل الظالمون !! ■



الصويدرة

منذ رحلت الى وادي الصويدرة ، في عام ١٣٥٤هـ (١٩٣٥م) ما زالت تحوك في صدري رغبة شديدة وعميقة الى العودة اليه مرة أخرى ، أستقصي فيها دراسة ما به من الآثار.

وبعد ثلث قرن من الزمن حقق الله لـي الحلم القديم .

كان ذلك يوم عيد الأضحى من عام١٣٨٧هـ (١٩٦٨م) . ومن المدينة المنورة امتطيت السيارة ، التي انسابت بنا ناحرة مشرق الشمس . وكانت أشعة الشمس تسقط عـلى جباهنا سقوطا شبه عمودي . وكنت في نشوة غامرة بهذه الرحلة التي حقق الله بها أمنية غالية وقديمة طالما تحركت بين جوانحي . وكنت مع هذه النشوة الغامرة أشعر بشيء من القلق ، اذ لا دليل معنا من الأعراب الواقفين على أسرار هذه الصحاري الجرد . لكي يقوم بارشادنا الى الطريق السوي .. الى هـذه « الحلقة » من الفلوات الملقاة في وسط هذه الفلاة الكبرى الجرداء . ومع ذلك فان العزم المصمم كان رائدنا وقائدنا في هذه المرحلة « الأثرية » .

ومضت بنا السيارة في انسياب حثيث . على الطريق المعبدة ، فاجتزنا منطقة المطار ، وحاذينا « العاقول » ، ودخلنـا في « المحجر » العظيم الذي يمثل بحرا متلاطما ، من متراكم الحجارة . ثم دخلنا في « حزن » مفعم بأكوام الحجارة . كان لا بد للسيارة من اختراقه .

وهكذا تابعنا السير في هذا المحجر المغلق تقريبا .. فكنا نتلوى ونصعد ونهبط باستمرارية كاربة . وكانت الجبال تضيّق علينا الخناق . كلما أمعنا في السير الى الأمام ، وقد علـت الشمس . وتوسطت كبد السماء ، وبدأت ترسل أشعتها المتوقدة الينا .. فكدنا ننصهر . وزاد الطينة بلة أننا كنا نسير على غير هدى ، وبغير دليل خبير بهذه الطرق البدائية المتداخلة المتشابكة كخيوط العنكبوت . وقد داخلنا شيء من التردد بين الاقدام والاحجام ، ولكننا تغلبنا على هواجس التشاؤم ، ومن ثم مضينا الى الأمام مترقبين بكل شواعرنا المرهفة ، رؤية مشارف الصويدرة عن كثب ، أو العثورعلى دليل يرشدنا الى مكانها بين أكوام هذه الجبال المتراصة في كل مكان .

وأراد الله أن يحقق الأمل الثاني بعد لأي . وفي الطريق وقفنا بجانب مخيم أقامته احدى الشركات المتعهدة بإصلاح هذا الطريق فيما بين المدينة والقصيم وتعبيده ، وأخذنا نتطلع بأبصارنا مليا علّنا نرى أنسيا فيه . ومن بعيد لمحنا شبحين يخرجان من فجوة نائية ، يرفعهما وهج الشمس ويخفضهما . وقد سررنا بهذه المفاجأة غير المنتظرة ، لا سيما وأن رحلتنا كانت يوم عيد الأضحى وأعمال الشركة معطلة ، والطريق خالية من المسافرين . فترجلنا من سيارتنا ، وأقبل علينا الشبحان ، فاذا هما حارسان من حرس هذه المخيمات المتنائية بين هذا الطريق . فوافق أحدهما على ما طلبناه منه ، بعد تردد ، وأشعرنا بوعورة الطريق وبعد الصويدرة عنا ، وقال في لهجة هادئة ، ولكنها حازمة : انه لولا خوفه علينا من الضياع في هذه الصحراء ما كان يرافقنا . وقد شكرناه وقدرنا له موقفه الانساني النبيل .

وقد صدق الرجل ، فيما قاله لنا حيال بعد الصويدرة عنا بنحو ثلاثين كيلومترا ، مملوءة بالحجارة المسنونة ، كأنياب الأغوال ، وبالالتواءات والمنعطفات التي لا يستطيع التمييز بينها الا كل خبير بها .

بَـلْدة تولـدُ في وادي الآثار القَفْر

بقلم الاستاذ عبدالقدوس الانصاري

وبعد أن نالنا التعب من طول السير وقسوة الطريق ، أشار لنا الدليل « سعيد بن محمد العجماني » الى جبل حرّي ممتدّ أمامنا من الجنوب الغربي الى الشمال الشرقي متلو كالأفعى ، وقال : انه يطل على وادي الصويدرة الذي نقصده .

وقد انحدرت بنا السيارة في وهدة من الأرض شديدة الانخفاض ، أفضت بنا الى وادي الصويدرة الجميل الذي ما تزال صورته مرتسمة في ذاكرتي .

وكنت أعرف الصويدرة فلاة خالية من أي أثر للحياة أو الحركة . ولم يكن فيها حينما رأيتها لأول مرة سوى بضع شجيرات عجفاء من نوع نخيل الدوم بالقرب من جبل الصويدرة الحرّي ، وبالقرب من مسيل واديه الملتوي الجميل . وقد دلنا البدوي رفيق رحلتنا الأولى لعام ١٣٥٤هـ الى أن أرض الصويدرة أرض ذات أحساء وماء عذب قريب من سطح الأرض . فأينما حفرت بيدك وجدت ماء عذبا نميرا .

كذلك كنت أعهد الصويدرة ، وكذلك وصفتها في رحلتي الأولى قبل ثلث قرن . أما اليوم فان شجيرات الدّوم القصار العجاف قد نمون وكبرن ، وأصبحن أشجارا فارعة القامات ، مديدة الغصون .

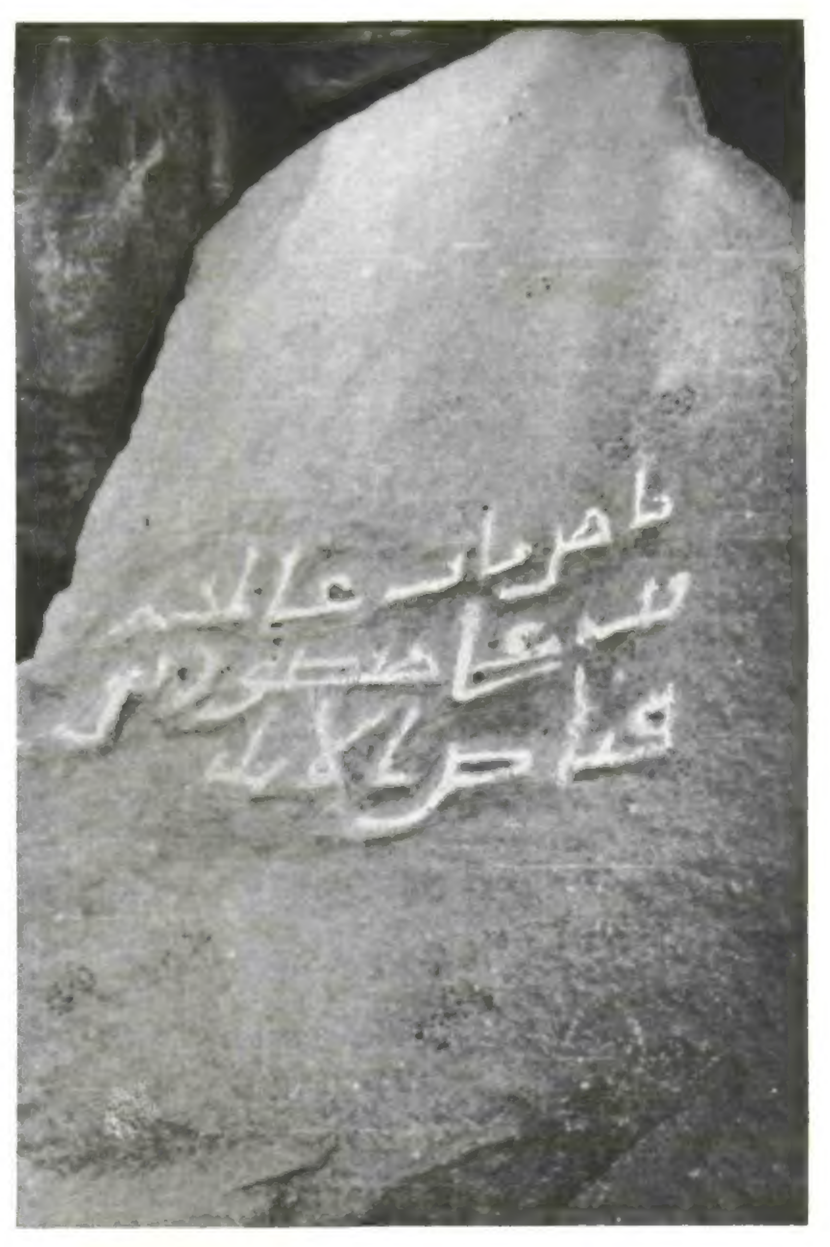
هذه البلدة في وادي الصويدرة

وكان أول ما لفت نظري في وادي الصويدرة ، هذه البلدة الجديدة التي ولدت هنا بعد عهد قدومي الأول الى هذا المكان .

حقا لقد كان مدهشا ورائعا ميلاد هذه البلدة الصغيرة في هذه الفلاة الكبيرة الملقاة بين فلوات مماثلة كثيرة في طريق القصيم .

ومن يدرينا ؟ فلعل هذا الميلاد لهذه البلدة هو أحدث ميلاد لها . ولعلها كانت في سالف الحقب ، مدينة كبيرة تموج بالعمران وتطفح بالسكان .. ثم لفها عامل الجفاف بين أحضانه فظلت أحقابا فلاة جرداء مهملة ، وشاهدناها قبل ثلث قرن كذلك . ثم عطفت عليها المقادير من جديد ، فاذا بها تولد ميلادا جديدا في عصر الكهرباء والذرة والصواريخ .

وكما يشقى الانسان ويسعد ، في مختلف مراحل حياته .. كذلك شأن الأرضين ، انها تشقى وتسعد ، في مراحل حياتها ، وبتعبير أدق : في مراحل تاريخها .



نقش عربي ذو علاقة بالمجتمع ، ويدل على ما كان يدور في مجالسهم من أحاديث .

وقد واكب انبعاث هذه البلدة في هذا العصر، توفر بعض المرافق الحديثة بها، من مدرسة ابتدائية لأطفالها، ومستوصف لمرضاها، وخزان ماء لسقيا سكانها، ومحطة نفط بدائية، ودكاكين ومقاه.

والصويدرة واد مستطيل، يمتد من الجهة الجنوبية الغربية، وبجانبه خبت مرتفع عنه بعض الشيء، محصور بين جبيلات حرّية على سعة واسعة فيه. وفي هذا الخبت، الذي كنت أعرفه خاليا من كل أثر للانسان والبناء والحياة، أقيمت بليدة «الصويدرة» الجديدة. وحين رأى السكان أنفسهم قد تكاثروا بها بعض الشيء، اضطروا الى حفر الآبار العميقة بالوادي، لتؤمن لهم سقياهم وري مزارعهم، التي منها النخيل والخضراوات وأشجار الفواكه. وقد أقاموا لهم خزان ماء عاما بالاسمنت المسلح، في منتصف علو جبل الصويدرة المملوء بالآثار المنقورة على صخوره. وربما قضى بناء هذا الخزان على بعض تلك النقوش، فقد افتقدنا بعضها قرب مكانه.

وأهل بلدة الصويدرة الناشئة هم من عرب البادية، نزحوا اليها من البرور، وأرادوا أن يتحضروا، فأقاموا مساكنهم بهذا الوادي الجميل.

ومباني بليدة الصويدرة كلها الآن من طين أرضها، يعمل منها اللّبن ثم يبنى به بعد أن يجف. ويوم تصل اليها مادة الاسفلت محمولة على السيارات العابرة من المدينة الى القصيم يسرع التمدد والتوسع الى الصويدرة.. وربما أصبحت بلدا كبيرا مشهورا مفعما بمختلف مرافق الحياة. ولعل التاريخ يكون بذلك قد أعاد نفسه في هذه المنطقة الجرداء. فانه ليتراءى لي من مختلف القرائن المعبرة أنها كانت ذات شأن وعمران في سالف الأزمان.

ولا بد أن ادارة الآثار العامة ستجد الكثير في أرض الصويدرة وجبالها، فتستخرج لنا من أعماق أرضها ما غاب فيها من آثار مدينتها المتخيلة العتيقة المندثرة.

جولة بين آثار الصويدرة

وبعد ذلك أقبلنا أنا و«مسعود قاضي» زميل الرحلة، وسائق السيارة، نمشي على أقدامنا سيرا الى جبل الصويدرة الماثل أمامنا على بعد منا يقرب من نصف كيلومتر. وحينما بلغناه أسرعنا في ارتقاء صخوره، وبدأت أقرأ الآثار، وآخذ صورة لها بالآلة المصورة التي أحضرتها معي لهذا الغرض. وقد بدا لي من كثرة نقوش هذا الجبل، كتابية ورسوم وحيوانات وآدميين في أوضاع مختلفة — والحيوانات منها ما يشبه «الديناصور» المنقرض في أعمق العصور الغابرة — بدا لي من وراء ذلك أنه لربما يكون بالصويدرة هذه بلدة مجهولة في الأزمان السحيقة. ويدلنا على شيء من ذلك الاحتفاظ بمعرفة اسمها ومسماها الى عهد الاسلام. فقد ورد في المراجع أن «ترعة واد يلقى إضم من القبلة وأنه يقع بناحية فَدَك بين لابتي حرّة»، وفيه يقول بشر السلمي:

أرى ابلي أمست تحنّ لقاحها
بترعة ترجو أن أحلّ بها ابلي

ومن معاني «الترعة» اللغوية الروضة في المكان المرتفع، ونحن نعرف أن العرب كان من دأبهم تسمية أمكنة بلادهم بما يلازمها أو بما تمثله في أنظارهم من صفات وشكول. فجبل «أحد» الماثل بضاحية المدينة المنورة الشمالية سموه بهذا الاسم، لتفرده وتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى بجوانبه متسلسلة، هي سلسلة جبال السّراة الممتدة من الجنوب الى الشمال من جزيرة العرب. و«منى» بين مكة و«عرفة» سموها بذلك لكثرة ما يراق فيها من دماء الأنعام في مواسم الحج. و«ينبع» سموها بذلك لكثرة ينابيعها. و«جُدّة» بضم الجيم، سموها بذلك لأنها طريقة، وكل طريقة جدّة وجادة، وجدّة طريقة بين مكة وشمالها. و«الخرج» سموه بذلك لكثرة ما تخرجه أرضه من نبات وأشجار وثمار.. وقس على ذلك الكثير من أسماء الأمكنة العربية القديمة مثل اسمي «ثور» و«عير» اللذين سموا بهما هذين الجبلين اللذين يقع أحدهما جنوب مكة المكرمة والآخر جنوب المدينة المنورة لمشابهة منظرهما لمنظر الثور والعير. ومثل «الجمّاء»، اسم كل من الأجبل الثلاثة المتلاصقة غرب شمال وادي العقيق، وسموها بهذا الاسم المشترك لمشابهة أشكالها للشاة الجماء التي لا قرون لها.

فالترعة

اذن لم تسمّ بهذا الاسم عبثا، ولا بد أنها كانت معروفة لدى العرب وقد عدّت من صدقات علي رضي الله عنه، ومعنى هذا أنه وجهت اليها عناية خاصة في صدر الاسلام لأهميتها ولخصبها، ولا بد أن اسمها هذا أبقي لها منذ القدم. ومن معانيها الروضة العالية، كما أن من معانيها مفتح الماء الى الحوض، ومن معانيها الباب، وهو مجاز، يقال: فتح ترعة الدار أي بابها.

فاطلاق العرب اسم «الترعة» على هذا الموضع بالذات منذ القدم، وتواتره على ألسنتهم حتى صدر الاسلام هو أمر لا بد أن يوحي الى الخيال العلمي المتطلع أنها كانت منطقة خصبة مأهولة، وذات مياه ثرة، وحدائق نضرة، وعمران جميل.. خاصة وانها تقع في طريق الحجاز — نجد، من ناحيتهما الأكثر خصبا وأناسيّ.. شمال الحجاز والقصيم. ولو أردنا أن نتعمق أكثر من ذلك في دراسة التاريخ العربي لوجدنا أن صلة حكم عربي قديم كانت تربط هذه النواحي من بلاد العرب ببعض قبل الاسلام بقرون.

ونستدل على عمران قديم سابق اندثر للترعة من بقاء الماء حتى عصرنا الحاضر بين ثنايا حصباء واديها الجميل، فهي «حسي» من الاحساء، مما نرجو أن يميط اللثام عنه البحث والتنقيب العلمي الأثري. بل اني ألمح في اسم «الصويدرة» نفسه، وهو الاسم الذي لا نعلم أصله ومنشأه، ألمح فيه المعنى الذي يكمن في اسم «الترعة». فان من معاني «صدر»: الصدور عن الماء وعن البلاد. ويظهر لي من بين ثنايا ما قرأته من بعض آثارها المنقورة على صخورها أنها ربما عاد اليها شيء من العمران والازدهار في أوائل الدولة العباسية، فأقام بها أولئك الذين ملوا الاقامة في المدن الكبيرة المملوءة بالمشكلات الاجتماعية والشخصية ومشاكل الحياة من فتن المنافسة والحسد والعداوات الموروثة.

ودليلنا على عمرانها في العهود القديمة قبل الاسلام هذا «النقش الثمودي» الذي وجدناه منقورا على صخرة من صخورها ينطق، حسبما قرأه وفسره الدكتور عبد الرحمن الطيب الانصاري، أستاذ التاريخ الشرقي القديم في جامعة الرياض، فقد قرأ أول كلمة في الأثر المشار اليه، فاذا بها «غتل»، وبمراجعة هذه المادة في مصادر اللغة العربية أفادتنا بأن معنى «غتل» المكان: كثر فيه الشجر، فهو غتل. ونخيل «غتل» ككتف: ملتفّ. وقال «تاج العروس في شرح القاموس»: ان الكلمة يمانية. واذن فان هذا المكان كان معمورا وذا أشجار ملتفة، وكان به يمانيون. والثموديون كما هو معروف في التاريخ وعلم الآثار الحديث، يمانيون نزحوا من اليمن

الى هذا المكان وغيره من بلاد العرب ، فمنهم أناس كانوا قد أقاموا بجدة ، ومنهم أنـــاس استوطنوا المدينة المنورة وما جاورها ، كالصويدرة ، والشقرة ، ومنهم أناس نزحوا الى الحجر ، وأناس أقاموا وراء الحجر الى الشمال من بلاد العرب .

وقد كتب النقش الصويدري الثمودي صيغة « وترايل » ، ويفسره الدكتور عبد الرحمن بأن « ترايل » هو من الأسماء الشائعة بين أسماء الاعلام الجنوبية ، وخاصة بين ملوك الجنوبيين ، وهو في هذا النقش — كما يبدو — كاتب النقش نفسه . ولا يعلم الدكتور اذا كان اسما لحاكم هذه المنطقة ، أو هو اسم الخطاط الذي كتب هذا النقش .

ودليلنا على تجدد شيء من عمران الصويدرة في صدر الدولة العباسية ، هذه النقوش المنقورة على صخورها باللغة العربية الفصحى ، والتي ينطق بعضها بأنه نقش في سنة ٢٠٥هـ ، أي في أيام ازدهار الدولة العباسية ، وقد جاء في بعضها أنه نقر في عهد هارون الرشيد .

أما الأثر « الثمودي » المنقور على إحدى صخور الصويدرة فيبدو كما يلي :

وكنت قد عرضت في عام ١٣٥٤هـ(١٩٣٥م) مثال هذا النقش على عبد الله فيلبي ، فأجابني بما خلاصته : « ان حروف هذا النقش قديمة جدا ، وهي غريبة ، ومتداخل فيها بعض الخطوط القديمة ، وعلى كل فهي اما أن تكون ثمودية ، أو من الخط العربي القديم ، أو العبراني القديم ، أو الفينيقي .. والأربعة من أصل واحد . ثم رجّح فيلبي أنها من العربي القديم ، ورجّح أنها أسماء لأشخاص كانوا قد نزلوا في المحل الموجودة فيه في الحقب الخوالي ، وهي تقـرأ كالخطوط السامية ، من اليمين الى الشمال .

وكان حل فيلبي لها هكذا :

هـتـل ودل يـدد ر هـت زمم

زشر حعت يشل

ولم يحل « فيلبي » الأحرف الخمسة الأخيرة .



نقش اسلامي منقور على أحد صخور الصويدرة ، يعود عهده الى أول القرن الثالث الهجري .

ثم في عام ١٣٨٧هـ (١٩٦٨م) استطلعت رأي الدكتور عبد الرحمن الانصاري ، ففسرها حسب ما يلي بيانه :

غ ت ل و د ن (بن) ى د د (بن)

ن غ ت (نغيت) (بن) ز م ج (بن)

هـ ن ش أ ش ر ك

ى ش ر (يسر) يتريل (وترايل)

أما شرحها حسب حل الدكتور عبد الرحمن المشار اليه ، فان « غتل » المكان معناها في اللغة العربية : كثر فيه الشجر ، فهو « غتل » . و « ودّن » هو المعبود الخرافي للعرب : و « ودّ » وقد جاء ذكره في القرآن المجيد .

وقد زاد الدكتور عبد الرحمن كلمة « ابن » بين أسماء الأعلام ، تمشيا مع الطريقة التي سار عليها علماء النقوش والكتابات في افتراض وجودها مستترة .

و « نغيت » كزبير : اسم شخص ، كما ورد في « تاج العروس » .

و « الزّمج » : الغضبان ، كما ورد في « تاج العروس » ، والعرب تسمي « الغضبان » .

و « هنش » : الهنش : الخفيف ، كما هو في « تاج العروس » . ومن المحتمل في رأي الدكتور عبد الرحمن أن تكون الكلمة بمعنى الانسان وبمعنى الرجل . وهي مكونة من « هـ » كأداة تعريف و « ناش » بمعنى انسان أو رجل .

و « وترايل » هو من الأسماء الشائعة بين أسماء الاعلام الجنوبية ، وخاصة بين ملوك الجنوبيين . وهو — كما يبدو — كاتب النقش ، أو من أمر بكتابته .

وأقول : ان لفظة « ال » هي بمعنى « الله » في لهجة حمير ، فقد أورد نشوان الحميري في شرح قصيدته المعروفة في « ملوك حمير وأقيال اليمن » اسم جد أبي نصر محمد بن عبد الله ، وهو : « وهب ال » أي وهب الله .

وقد وجدنا أيضا نقشا اسلاميا معيّن التاريخ والأسماء منقورا على أحد صخور الصويدرة ، وهذا مثال له :

وقد حللته وقرأته قراءة أعتقد انها صحيحة ، وهي هكذا : « اللهم صلي على محمد بن أحمد ابن أيوب الأهوازي ومعه ولد الفضل « الفضيل » ابن ابراهيم سنة خمس ومائتين . »

والميزة التي يقدمها لنا هذا النقش الاسلامي الذي عاش راقمه في المائة الثانية للهجرة ، وأدرك أول المائة الثالثة ، هي ان راقمه قد أرخه تاريخا واضحا لا لبس فيه كما انه أعطانا نسبه وأصله فهو أهوازي . كما أعطانا اسم رفيقه ونسبه . ولعل الأهوازي هذا ورفيقه كانا صاحبي أعمال أو مشروعات أو وظيفة حكومية مرموقة ببلدة الصويدرة في صدر الاسلام . أو لعلهما كانا حاجين أو سائحين أو تاجرين متجولين قدما الى هذا المكان فنقر فيه أحدهما ، ما نقره من هذا النقش الأثري الماثل الى اليوم .

النقوش العربية الأثرية التي تدل على تجدد شيء من عمران الصويدرة ، أو على بعض أهميتها التاريخية في أوائل عصور الاسلام ، هذا النقش الذي نقره ناقره وفيه ما نصه : « اللهم أغفر لطيفور بن باز الخراساني مولى هارون أمير المؤمنين » .

ومعنى هذا أن تاريخ نقش هذا الخط كان في عهد هارون الرشيد ، ومن قبل أحد مواليه المسمى باسم « طيفور » الخراساني ، وقد راجعت ترجمة « طيفور » في كتب التراجم ، فوجدت في كتاب « الأعلام » للزركلي ترجمة لأحمد ابن طيفور الخراساني وقال عنه الزركلي : انه مؤرخ أصله من مرو الروذ ، ومولده ووفاته ببغداد ، وأنه كان مؤدب أطفال ، وله نحو ٥٠ كتابا ، لأحمد بن طيفور ابن اسمه « عبد الله » كان مؤرخا أيضا كأبيه ، وقد يكون أحمد ابنا لطيفور اشتهر فذكر في التاريخ .

وهناك نقش أثري عربي ذو علاقة بالمجتمع العربي ، ويدل على ما كان يدور في مجالسهم من أحاديث ، وما يخطر لهم من اتجاهات ، وقد قرأته مبدئيا هكذا : « ناصربات على لحم لذ ، وعليّ منصور قنّاص الأيّل . » والمعنى المقصود واضح اذا كان هذا الحل صحيحا .

هذا ، وهناك صور حيوانية وآدمية لا يمكن للانسان العالم أن يهملها ، بالنظر لأهميتها بالنسبة لتاريخ الصويدرة وآثارها .

وبمقارنة بعض تلك الصور المنقورة بالرسوم المصورة في كتاب « الصحراء الكبرى » لمؤلفه « جيمس ويللارد » ، يظهر تشابه واضح في طريقة الرسم وشكله ونوعه .

ويوجد بين رسوم الصويدرة صورة لأسد متحفز للوثوب على رجل واقف أمامه . كما أن هناك صورة لحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ وبجانبه من بعد فرس واقفة .

وهناك صور جمال وأغنام وغزلان وظباء وهوادج ورجال يركبون الجمال ويسوقونها بسرعة الى غير ذلك مما يحفل به جبل الصويدرة من آثار ورسوم .

هذا ، ولم يجر في أرض الصويدرة بحث علمي أو تنقيب أثري حتى الآن ، فهي بكر من هذه الناحية تماما . ولا أعلم أن أحدا من علماء الآثار قد كتب عنها شيئا من ناحية تاريخها وآثارها فيما مضى من الزمان ■

السَّعادة المَكتومَة

للشاعر الياس قنصل

أنت في روضة الشباب وما … تبصر فيها العيون الا الزهورا

تنجلي عندها الثغور ابتسامات … تزيد الحياة بشرا ونورا

فلماذا عدا على وجهك الحزن … وخطّ العبوس فيه سطورا ؟

أيّ خطب دهى مناك ولم … تحسن لتخفيف وقعه تدبيرا ؟

أي بلوى بها نكبت وأسدلت عليها من الوجوم ستورا ؟

قلت : كلا يا صاح لست كما … تحسب في مخلب الصروف أسيرا

أنا في راحة وعيشي رغيد … أجتبيه الدهر مطمئنا صبورا

ان يكن فاتني الثراء فلا … ألفى من العار أن أكون فقيرا

وطموحي الى العلى رغبة في … النّفع لا نزوة تؤجّ سعيرا

ورجائي متى العواصف ثارت … جبل لا يهمه أن تثورا

فاذا دبّت الصعاب فاني … بعد تذليلها أوالي المسيرا

وضميري من السلام صباح … يجهل المين والأذى والشرورا

وانتصاري الضئيل للعدل يلقى … من جميل الثناء أجرا كبيرا

ولشعري مكانة ، رغم أني … لست في عالم البيان شهيرا

ومقامي بين الصحاب عزيز … وولائي كودّهم لن يخورا

والتي حبّها حنان وطهر … أودعتني وفاءها المأثورا

انني أهمل الهبات التي تمنح … من نالها الرفاه الوفيرا

لا انتظارا لعطف راث ولا … كسبا لعون أحظى به مستجيرا

وأغالي مهوّلا ما ألاقي … في طريقي ، حتى يظنّ عسيرا

ليس كفرا بما حباني به … الرحمن من فضل يستحق الشكورا

ان لي غاية أبرّ وأسمى … أجتنيها سعادة وحبورا

لست أرضى بأن يغاظ عدوّي … اذ يراني موفّقا مسرورا





زهور في الصحراء

زهر نبات «البروق» الذي ينمو في مختلف مناطق الصحراء، ويعلو الى حوالي متر عن سطح الارض، وتعزف عن رعيه الماشية.

حياة البدوي في الصحراء ، مرتبطة الى حد كبير بحياة الماشية التي لديه . فهي مصدر رزقه ووسيلة نقله في الحل والترحال . وبقدر ما للماشية من أهمية في حياة البدوي بقدر ما لتأمين المرعى من أهمية لديه أيضا . لذلك كان لزاما عليه أن يكون ملما بمواطن الماء والكلأ في كل فصل من فصول السنة في تلك الصحاري الواسعة المترامية الأطراف ، المتشابهة الملامح والسمات . ويكون عارفا بمواقع المراعي التي يرتادها بحيث لا تتضارب مع المراعي التي يرتادها غيره من أبناء القبائل الأخرى ، وكذلك بالمواقع الاحتياطية التي يلجأ اليها في سنين المحل العجاف ، حيث يبلغ التنافس على الكلأ والماء أشده .

والمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية تضم الجزء الشمالي من الربع الخالي ، الذي يبلغ معدل سقوط الأمطار فيه حوالي ٥سنتيمترات، وتصل الحرارة القصوى فيه الى نحو ٤٥ درجة مئوية .

أما بالنسبة لعلماء النبات ، فان هذا الجزء من الصحراء يعتبر جزءا من الاقليم الصحراوي المزهر الذي يمتد كالحزام من شواطىء المحيط الاطلنطي غربا عبر شمالي أفريقيا ، حتى حدود الباكستان شرقا . وتواجه النباتات في هذه المنطقة الكثير من المشكلات البيئية ، كقلة تساقط الأمطار ، وارتفاع درجة الحرارة ، والعواصف الرملية ، وملوحة التربة ، الأمر الذي جعل فصائل قليلة منها قادرة على التكيف والتأقلم مع طبيعة الصحراء . ويبلغ تعداد فصائل النبات التي تعيش في هذه المنطقة وتعتبر أصلية فيها ٣٦٠ فصيلة ، بما في ذلك أنواع الأعشاب البرية .

ولكن مهما ضؤل عدد فصائل نبات الصحراء تظل هناك حقيقة ثابتة وهي أن هناك نباتا في الصحراء . وهذا النبات ذو أزهار تضفي على تلك البقعة ، التي تبدو لأول وهلة قاحلة جرداء ، مسحة من الجمال غير المتوقع . ففي أودية السهول الشمالية — مثلا — أثر ابتلال التربة بزخة من المطر ، يلاحظ انتشار أزهار السوسن بألوانها الأرجوانية الرائعة . وفي واحة الاحساء تنتشر بين صفوف القصب أزهار سحلبية حمراء . وفي الربيع من كل عام ، تزدان الرمال بثمار « أيك العبل » القرمزية ، كما تنتشر فوقها أنواع أخرى من النباتات الصحراوية .

لقد تعلم ابن الصحراء كيف يجد هذه النباتات على اختلاف أنواعها ، وكيف يستخدمها



نبتة « الخزامى » ، الشهيرة بأزهارها البنفسجية الزكية ، تنتشر رائحتها في الهواء الى مسافات بعيدة . وهي من أوائل الأعشاب التي تنمو في مختلف المناطق اثر هطول الأمطار .



عشبة « العنصيل » ذات الأزهار البنفسجية والبيضاء ، وهي من فصيلة البصليات ، وتنمو في أماكن المستنقعات اثر نضوبها مباشرة .



نبات ذو أزهار عطرة يكثر وجوده في مختلف المناطق الرعوية وتقبل عليه الماشية ، وهو يعرف باسم القحويان ، وهو – على الأرجح – تحريف « للأقحوان » الذي يتغنى به الشعراء .

نبات « الديدحان » ذو الأزهار الصفراء أو الحمراء ، لا يعلو عن سطح الأرض أكثر من نصف متر ، ويصلح لرعي الماشية .





جذع متحجر لشجرة كانت تنمو في البادية منذ أقدم العصور ، ويقدر العلماء عمره بنحو ٢٠٠ مليون سنة .

وذلك أمر يثير اعجاب أبناء المدن الذين يقطنون في مناطق ذات ظروف مناخية أفضل ، لا لكون أبناء البادية استطاعوا الحياة في تلك البيئة القاسية فحسب ، وانما لكونهم استطاعوا أن يحققوا بذلك اكتفاء اقتصاديا ذاتيا يعتمد برمته على النباتات الصحراوية المحدودة . فقد استخدموا هذه النباتات في مختلف أغراض حياتهم العامة من غذاء ، ودواء ، ووقود ، وزينة ، وصباغ ، وعلامات ترشدهم أثناء الترحال والسفر .

أكثر النباتات قيمة بالنسبة للبدوي ما يصلح منها علفا لماشيته ، ووقودا لناره التي يأنف أن تخبو . ومن بين النباتات الرعوية المهمة في هذه المنطقة ، « العرفج » الذي يشغل مساحات واسعة في شمال شرقي المملكة ، و « الرمث » ، و « الثمام » اللذان يكثر انتشارهما في السهول الساحلية ، واللذان يبدو أثرهما الملح واضحا في طعم لبن النياق الذي يقدمه البدوي عادة لضيوفه وزائريه . أما النباتات التي تستخدم جذوعها كوقود للطهو والتدفئة فهي شجيرات « الغضا » ، و «الرمث » ، و « العبل » وغيرها .

ويأكل البدوي جذور « الحميزان » التي تشبه الجزر ، وجذور « الربحلا » التي يقارب طعمها طعم الجوز . كما يُصنع من بذور « السمح البري » خبزا يأكله سكان الشمال . ومن بين النباتات الصحراوية الأخرى التي يتناولها رجال البادية ثمار « القريش » غير الناضجة ، ولها طعم قريب من طعم الملفوف الحلو .

والى جانب النباتات المفيدة ، هنالك أنواع من النباتات الصحراوية السامة يعرفها البدوي ويتجنبها ويبعد عنها ماشيته . ومن بين هذه النباتات « العشار » الذي كان يستخدمه الهنود القدماء لتسميم النبال ، والذي كانت القبائل العربية تستخدم فحمه في صنع البارود ، و« الجرمل » الذي تشبه أشجاره البرية أشجار الدفلى العادية .

أنواع النبات الذي يستعمله البدوي في الأغراض الطبية عديدة ، منه ما هو ذو قيمة علمية ثابتة ، ومنه ما كان مجرد باعث على الطمأنينة النفسية . ومهما يكن الأمر فقد كانت الأعشاب الطبية فيما مضى كل ما يملكه البدوي من وسائل العلاج ، قبل تعميم المستشفيات والمستوصفات الطبية المجانية . فكانت فاكهة « الشري » التي تشبه اليقطين من حيث الشكل تؤخذ كمليّن للمعدة ، بينما يستخدم نبات « الجعدة » في علاج الحميات ، في حين أن رماد نوع معين من الأشجار كان يستخدم في علاج الجمال الجرباء .

ومن ضمن الأعشاب التي كان البدوي يلجأ اليها كوسيلة تقليدية للعلاج والمداواة شراب « الرمرام » المغلي الذي كان يستخدم في علاج لدغة الأفعى والعقرب ، وذلك لاعتقاد البدوي بأن ما يكسب الحرذون الصحراوي المناعة ضد لدغة الزواحف السامة كونه دائم التنقل بين أوراق « الرمرام » .

ولطالما استعملت الفتيات البدويات الأعشاب للتجميل ، فكن ، ولا زلن ، يطلين خدودهن بجذور الكحيل القرمزية ، أو بثمار « ايكة العبل » الحمراء ، كما كن يتحنين بمسحوق أوراق شجر الحناء .

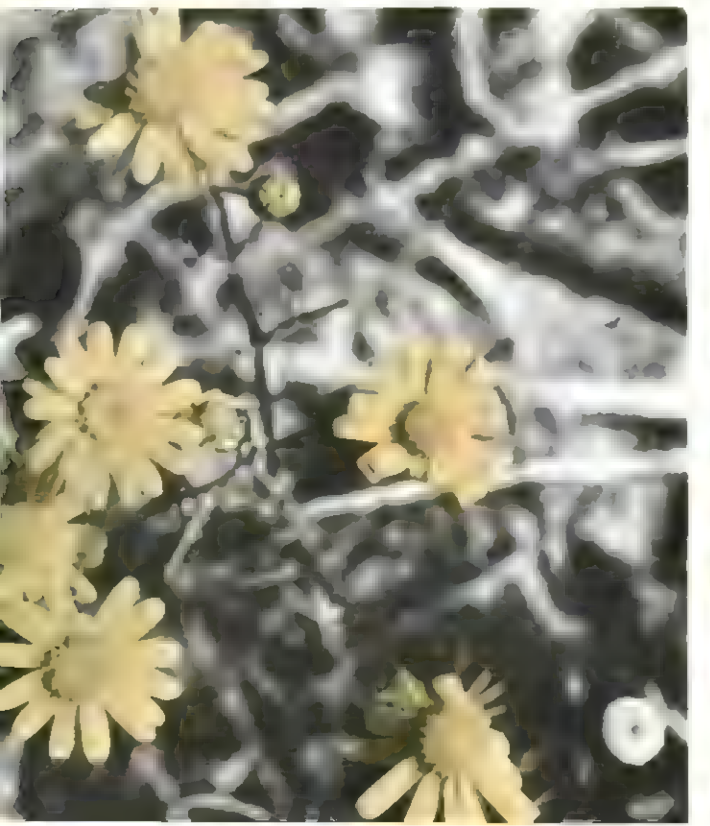
وتتخذ من جذور شجر « الأراك » ، الذي يعرف بين البدو باسم الـ « راك » ، مساويك لتنظيف الأسنان لا يزال عدد كبير من أبناء البادية يستخدمها حتى الآن ، وقد ثبت أن اللحاء البسيط الذي يتخلل أليافها يعمل بمثابة منظف طبيعي للأسنان .

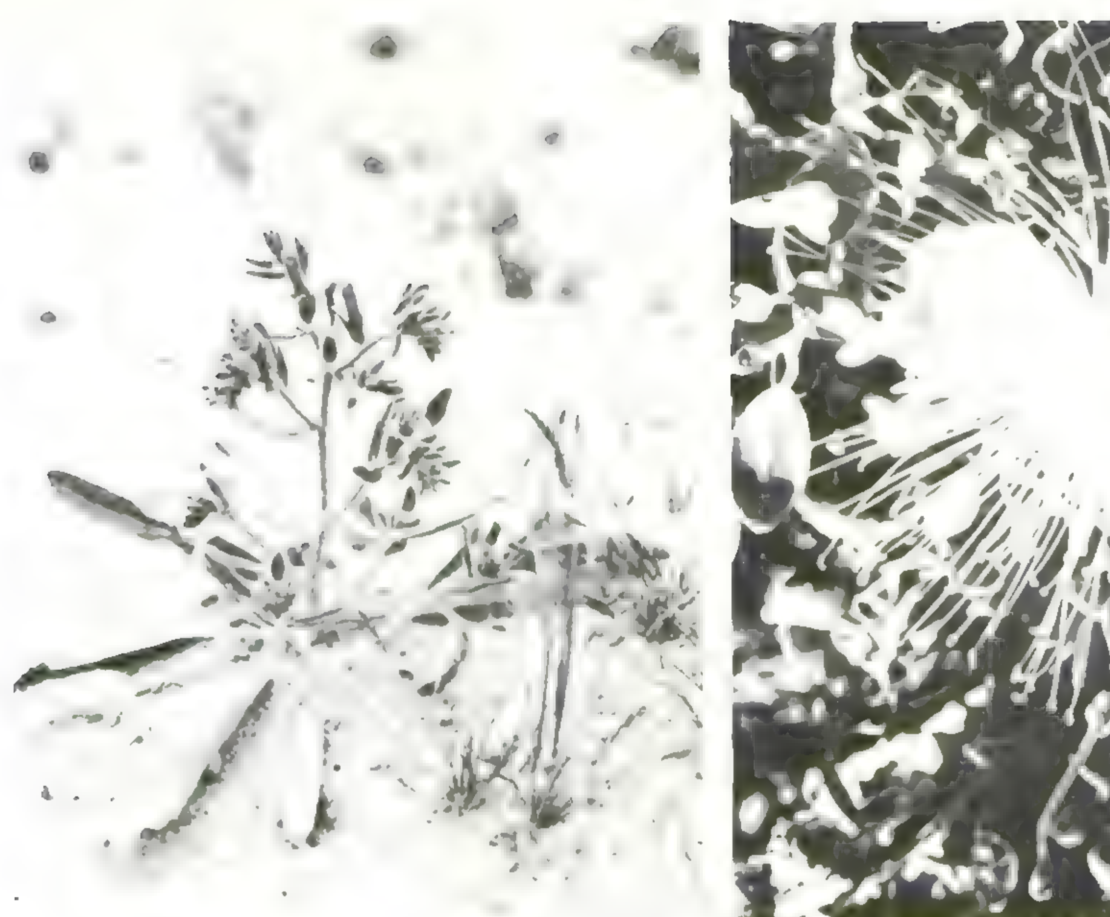
وفي بعض أنحاء المملكة ، تقوم النباتات الصحراوية بمثابة دلالات أو علامات يسترشد بها المسافرون في تنقلهم وترحالهم . ففي سهول الدبدبة البحصاصية ، مثلا ، يتعرف البدو الى مضارب أطنابهم والى مواقع الكلأ والرعي عن

من الأزهار الصفراء الجميلة زهرة عشبة « العضيد » التي تحتوي جذوعها على لحاء يشبه الحليب .

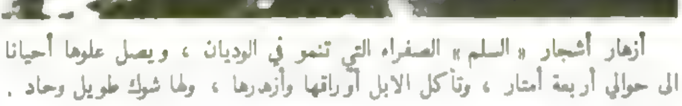


نبات ذو زهور صفراء يعرف لدى بعض قبائل البدو باسم « كراع الغراب » أو « رجل الغراب » ، ويكثر انتشاره في المناطق الجبلية اثر تساقط الأمطار .





عشبة الكحل « ذات الأزهار الصفراء والحمراء، ويكثر وجودها في سهول الدبدبة الشمالية .



أزهار أشجار « السلم » الصفراء التي تنمو في الوديان ، ويصل علوها أحيانا الى حوالي أربعة أمتار ، وتأكل الابل أوراقها وأزهارها ، ولها شوك طويل وحاد .

طريق الاهتداء ببعض الشجيرات الصحراوية المحيطة . فتجده يقول مثلا : « القبيلة الفلانية تخيم في شرقي شجيرات العرفج ، أو حيث تبدأ أشجار الحمض . » هذه الدلالة تعطي البدوي معالم معروفة الاتجاه بالنسبة اليه ، كما لو أنك عينت درجة الموقع بالنسبة للبحّار ، أو اسم الشارع ورقم المبنى بالنسبة لابن المدينة .

ويقسم البدو النبات تقسيما معقدا وشبه علمي ، مبتدئين بالعشب والشجيرات السنوية ، ومنتهين بالأشجار الحرجية المعمرة . وهذه بدورها تعكس صورة عن سبيلي التكيف الرئيسيين اللذين تفرضهما طبيعة الصحراء القاسية على النبات .

ففي الفئة الأولى تأتي الأعشاب الصحراوية التي تنمو وتنشط خلال أشهر الشتاء الممطرة الباردة ، بينما تقضي أشهر الصيف الجافة الحارة داخل قشور قاسية تقاوم الحرارة . وقد زودت هذه البذور ببراعم تشق القشرة الخارجية وتنمو ، بمجرد سقوط كمية معينة من المطر تذيب المادة الكيماوية التي تغطيها . على أن عددا كبيرا من



زهر عشبة تنبت في المناطق الجبلية ، ويطلق عليها بعض أبناء البادية اسم « بصل الجبل » ، وهي لا تعلو عن سطح الأرض أكثر من ١٠ سنتيمترات .



شجيرة من « الشفلح » تنمو في المناطق الصخرية ، ويصل علوها أحيانا الى نحو المترين ، وهي ذات جذوع مليئة بالأشواك .



عشبة « الشقارى » ذات الأزهار البنفسجية العطرة ، والتي تؤثر في طعم لبن النوق فتكسبه نكهة حسنة . وهي تكثر في مختلف المناطق الرعوية .

هذه النباتات يستطيع اتمام دورة حياته — منذ مرحلة البرعمة حتى مرحلة تساقط البذور الجديدة — في غضون أسابيع محدودة . وهذا ما يجعل أزهار بعض هذه النباتات قلما تبدو للعيان ، ويصبح من الصعب على المتعمد الحصول على نماذج منها ما لم يقصد المكان المناسب في الموعد المناسب .

اما الفئة الأخرى من النبات الصحراوي ، والأكثر انتشارا ، فتشمل النباتات الشجرية المعمرة التي تزداد نضارة عاما بعد عام ، مما ينمي لديها القدرة على مقاومة وطأة الحر والجفاف . وبعض أنواع هذه النباتات يسقط معظم أوراقه ، ويتأثر نموه أثناء أشهر القيظ ، والبعض الآخر يبقى على مدار السنة أخضر ريان ، يقاوم الجفاف وقلة الماء ، وذلك لاحتواء أوراقه على طبقة كثيفة من الشعيرات .

ولم تكن معرفة العرب بعلم النبات مقصورة على معرفة الرعاة المحدودة ، بل ان علماء المسلمين ، خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، كانوا منكبين على ترجمة كتب التاريخ الطبيعي والنصوص الطبية عن ارسطوطاليس وغيره من علماء اليونان المشهورين ، وزادوا عليها ثمار تجاربهم وملاحظاتهم الدقيقة ، الأمر الذي لم يرس قواعد التاريخ الطبيعي الاسلامي فحسب ، وانما حفظ الكثير من التراث العلمي العالمي .

ومن خلال أعمال العلماء المسلمين العرب تلك ظهر في مصنفاتهم الكثير من الأسانيد التي تؤكد استخدامهم للنبات في الطب . على أن نفرا منهم تفرغوا كليا لدراسة النبات ووصفه ، مما جعل من هذه الدراسات علما قائما بذاته .

فأبو حنيفة الدينوري المتوفى عام ٨٩٥م ، يعتبر أول من سجل ملاحظات قيمة عن حياة النبات . ولا تزال مؤلفاته في وصف النباتات العربية ، التي ما فتىء كثير منها يحمل التسمية القديمة نفسها ، تعتبر مرجعا ذا قيمة كبيرة . كما يعد راشد الدين السوري (١١٧٧ — ١٢٤١) أول عالم ألف كتابا عن النبات مدعما بالرسوم الايضاحية ■

عصام العماد

ضوء على السياسة الشرعية*

بقلم الاستاذ عبد السلام هاشم حافظ

يترك الامام ابن تيمية — جانبا من جوانب الدين الحنيف والحياة الاسلامية بوجه عام، لم يقل فيه برأي ، أو يصدر عنه حكما يفيد منه الناس سواء في أمور عباداتهم أو معاشهم أو قضاياهم الاجتماعية العامة أو السياسية الحاكمة ..

وقد طالعنا بكتابه (السياسة الشرعية) الذي يتناول فيه شئون الدولة الناجحة ، وما يجب أن يكون عليها من الولاة والمسئولين الأمناء لحقوق الرعية ، ومطلب العدالة لها ، وقيام الحكم فيهم بالحسنى ، والاصلاح والتيسير عليهم .

وقال الامام في كتابه عن ذلك : « وقد دلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولاية أمانة يجب اداؤها ، في مواضع مثل ما تقدم ، ومثل قوله عليه السلام لأبي ذر رضي الله عنه في الأمارة : « انها أمانة وانها يوم القيامة خزي وندامة ، الا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها » .

ذلك ان العدل بين الناس ، والسعي لخيرهم ، وابعاد الضر عنهم . من أمس الحكم الصالح الذي يستهدف عزتهم ورفعة الوطن وكرامة حياة المجموع . والحاكم مسئول أول في تولية أمرائه وقضاته . وقد قال الرسول الكريم : « من ولي من أمر المسلمين شيئا ، فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح منه ، فقد خان الله ورسوله » .

كان الامام ابن تيمية يدعو—وهو يفسر العناصر السليمة التي يتكون منها كيان الدولة الصالحة—الدولة الى العمل بإخلاص في مختلف المجالات الحياتية ، والدفاع عن نفسها وعن رعيتها . يقول من كتابه ذاك أيضا :

« القوة في كل ولاية بحسبها ، فالقوة في امارة الحرب ترجع الى شجاعة القلب ، والى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها ، فان الحرب خدعة ، والى القدرة على أنواع القتال ، ونحو ذلك . .

* تنشر هذا البحث بمناسبة انقضاء ٦٥٥ عاما في شهر ذي القعدة على وفاة فيلسوفنا الاسلامي الكبير الامام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم — ابن تيمية المولود سنة ٦٦١هـ .

في الحكم بين الناس ترجع الى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة ، والى القدرة على تنفيذ الأحكام . »

ويقرر الامام « ابن تيمية » بأن للولاية ركنين ، هما : القوة والأمانة . ومن ثم فهو يرى أن رفعة شأن الدين في الدولة لا تأتي الا من صلاحية الولاية والحكم النزيه .. وهذا ما نجده واضحا في قوله : (ويجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين الا بها ، فان بني آدم لا تتم مصلحتهم الا بالاجتماع لحاجة بعضهم الى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس ، حتى قال النبي ، صلى الله عليه وسلم : « اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم . » فأوجب النبي ، صلى الله عليه وسلم ، تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر ، وتنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع ، ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والعدل ، واقامة الحج ، والجمع والأعياد ، ونصر المظلوم واقامة الحدود . وهذا لا يتم الا بالقوة والامارة ... فالواجب في كل ولاية الا صلح بحسبها ، فاذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة ، قدم أنفعهما لتلك الولاية . »

ونعرف بعد ذلك تفضيل ولاية القوي الشجاع في الحروب ، وتفضيل الورع التقي في القضاء لمعرفته بالأحكام واحجامه عن الانزلاق الى هوى أو إغراء المتقاضيين بالرشوة أو سواها .

وفي هذا أيضا اصلاح للمجتمع الذي كان الامام « ابن تيمية » يوليه جل اهتمامه ، وهو يشتد في الدعوة الى اقامة ميزان العدالة بين الأمة ، والمساواة بين أفرادها .

ونتأكد من هذا في مطلع كتابه القانوني « الحسبة في الاسلام » اذ يؤكد أن العدل مطلب كبير لأمان الدولة وبقائها . ولقد أوضح الامام « ابن تيمية » النظم الصحيحة التي ينبغي أن تتوفر فيها ، كما كان شغوفا بأن يرى المجتمع المثالي ، وقد غدا حقيقة واقعة في جنبات البيئة الاسلامية التي لها فضل كبير على سائر المجتمعات الأخرى . فهو يرشد ويحث على تنقية هذا المجتمع من شوائب تلك المهازل والبدع التي دخل بها اليه دعاة السوء والهدامون . وقد كتب في هذا التوجيه أكثر من مؤلف ، مثل كتابيه ، « الوصية الكبرى والصغرى » و « زيارة القبور » الذي يقول فيه : « ان الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه ، هو عبادة الله وحده لا شريك له ، واستعانته والتوكل عليه ، ودعاؤه لجلب المنافع ودفع المضار . »

ويقول الامام في معنى الاستنجاد بغير الله بأنه شرك صحيح صريح . وان قال أنا أسأله لكونه أقرب الى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور ، لأني أتوسل الى الله به كما يتوسل الى السلطان بخواصه وأعوانه ، فهذا من أفعال المشركين .. « فالله المحيط بكل شيء » .. والقائل : « أدعوني أستجب لكم » دونما واسطة أو زلفى — و « اليه يرجع الأمر كله » .. وفي الحديث القدسي يقول عز وجل « أنا عند ظن عبدي بي . »

فهل يعقل أن يتقرب المؤمن الى ربه برجاء مخلوق مثله محتاج هو أيضا رضاه ومغفرته ؟ ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان يقول : « والله اني لأستغفر الله وأتوب اليه في اليوم أكثر من سبعين مرة . » فهذا رسولنا الأمجد الشافع المشفع الذي تعرض عليه أعمال أمته كل يوم ، كان يدعو ربه ويستغفره ويتوب اليه ، وهو يرجو رحمته ويخاف عذابه . ثم لا يملك أكثر من أن يدعو للمؤمنين ربهم فان شاء أجاب وان شاء منع . « له دعوة الحق » ، وبيده تصاريف أقدارهم .

قال الرسول ، عليه الصلاة والسلام : « من أحسن في الاسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الاسلام يؤاخذ بالأول والآخر . » وهذا كلام عام يشمل الاساءة من أي الجوانب ، سواء بالرأي ، أو بالاعتقاد ، أو بالعمل ، أو بأي شكل من أشكال تصرفات الانسان دينية كانت أو دنيوية .

ولدرء أمثال تلك الاساءات الى مفاهيم الاسلام وتشريعاته ، كان الامام « ابن تيمية » يجند علمه وقواه ، ويسخر قلمه بدعوة خالصة لله ، فنجده يتحدث في كتابه « جوامع الكلم الطيب في الأدعية والاذكار » ويثبت ما يصح أن يدعو به المسلمون إلههم ، وما يتلونه من أذكار حميدة في تمجيد الرب وعظمته وقدرته في مخلوقاته ، وطلب عفوه واحسانه ومكرماته منه القادر الوهاب . كما ان كتابه « قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة » يوضح بجلاء ما يجب على المسلم اتباعه أو تركه في هذا الشأن على ضوء الشريعة السمحاء ، ولما يرضاه الله ورسوله لهم ، ولا يخالف الدين في شيء .

هذا واننا لواجدون في كل كتاب من مؤلفات الفيلسوف الاسلامي الكبير الامام « ابن تيمية » بحثا خاصا بفن من فنون العلم ، تنبيها وتوجيها ، سواء في الأمور الفقهية ، أو في تفسير الحقائق الشرعية ، أو الحض على اصلاح شأن الدولة ، والراعي ، والرعية ، والوطن الذي لا يتكامل الا بهم ، والبحث على جلب النفع لهم ، واستدراك ما يوجب نعم الله وعفوه ، ويدفع غضبه ونقمته . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشريعة أقوالي ، والطريقة أفعالي ، والحقيقة أحوالي ، ومعرفة الله رأس مالي » .

ولذلك كانت جهود الامام « ابن تيمية » لا تقتصر على جانب دون آخر في كل ما له علاقة بحياة الانسان الخاصة والعامة ، الدينية والدنيوية ، كما رأينا في أبحاثه ونقده وأفكاره ■

المكتبات الاسلامية العامة

وأثر الكتاب في حياة العرب الروحية

بقلم الاستاذ لطفي ملحس

الف الناس الكتب وجمعوها قبل ظهور الطباعة، بل حتى قبل أن ينتشر الورق بينهم. وماتزال مكتبات العالم القديم تثير الاهتمام، رغم انها احتوت على وثائق تاريخية فقط. وفي سنة ١٨٥٠ اكتشف "لايارد" عالم الآثار الانكليزي في "نينوى" قصر الملك "آشور بني بال" ووجد مكتبة في غرف اقبيته كانت تتألف من الواح آجر نظمت بعناية فائقة، ورتبت باستظام، وبلغ عددها نحو عشرة آلاف ويظهر أن الملك أباح لكثيرين أن يدرسوا في تلك الغرف.

وفي مصر القديمة أسست كذلك مكتبات نفيسة، وقد وصف زائر اغريقي مكتبة بناها رمسيس الثاني، الذي عاش قبل الميلاد بثلاثة عشر قرناً، ونقش على بابها: "صيدلية الروح". ولابد انها كانت تحوي على آلاف من لفائف البردي. وقد استعمل العرب لفائف البردي للكتابة حتى بعد ظهور الورق، وظلت لمدة عصور من أهم صادرات مصر الى البلاد الواقعة على شاطيء البحر الابيض المتوسط.

عناية العرب الفاتحين بالكتب

عني المسلمون الفاتحون عناية تفوق التصور بمكتبات البلدان التي فتحوها. وكان فقد مكتبة الاسكندرية، التي بناها «بطليموس»، موضع ألمهم وتحسرهم وكانت الكتب موضوعة في بنائين متباعدين من المدينة، دمر أكبرهما بطريق الصدفة عندما أحرق «يوليوس قيصر» الأسطول المصري. ودمّر الثاني، الذي أضيفت اليه كتب كثيرة هدية من «مارك أنطوني» الى «كليوباترا»، أحد اتباع «ثيودوسيوس» سنة ٣٨٩ ميلادية. ومزق بعض السكان قسما منها.

والعرب لم يكتفوا في بدء التاريخ الاسلامي بالحفاظ على الكتب القديمة، بل راحوا يجمعونها، ويترجمونها، ويتدارسونها، ويؤلفون على غرارها كتبا جديدة. وقبل ذلك التاريخ، لاحظ عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، كثرة عدد الصحابة الذين استشهدوا في معارك الفتوح، وخشي أن يجهل المسلمون مع توالي السنين تعاليم دينهم وسيرة نبيهم عليه السلام فقرر عام ١٧ للهجرة، أن ينتدب أناسا من ذوي العلم الى كل منطقة احتلها العرب ليلقوا دروسا عليهم تحفظهم القرآن الكريم، وتفقههم في الدين، وتذكرهم بالسيرة، في كل يوم جمعة. ولهذا أصبحت المساجد مراكز للتثقيف والتعليم الديني، وموضعا تحفظ فيه كتب الفقه والشريعة وتعقد فيه حلقات متعددة الغايات. فمن حلقات مالك والشافعي في الفقه والتفسير الى حلقات الكسائي وسيبويه وأبي عبيدة في اللغة والتاريخ. وذكر الخطيب البغدادي انه شاهد في عصره، في الجوامع حلقات تبحث دروسا في الطب.

المساجد دور تعليم وتثقيف

ما تزال المساجد من عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين الى أيامنا الحاضرة، مراكز للتعليم والتثقيف. وكل زائر يصل الى بلدة أو مدينة يتوقع أن يستمع الى درس مفيد في أحد جوامعها. وعاش كثير من العلماء اما في المساجد، واما حولها حتى يكونوا قريبين من مكتباتها. وقد تحدث «ناصري خسرو»، وهو يصف ما شاهده في رحلاته سنة ٤٣٩هـ

(١٠٤٧م) عن خمسة آلاف رجل يترددون يوميا على جامع عمرو في الفسطاط للقراءة أو لسماع المحاضرات.

وهكذا استمرت الزيادة في عدد الكتب على التوالي في معظم المساجد بفضل هبات المتعلمين ، ووقفها على أهل العلم وبقيت هذه المكتبات الموقوفة سالمة تقريبا عدة عصور ، وبقي عدد الذين يترددون عليها للمطالعة يزداد باستمرار . واحتوت مكتبات المساجد على مؤلفات كثيرة في الدين والحديث والسيرة النبوية وتاريخ حياة الصحابة وغيرهم . كما احتوت على مؤلفات في اللغة والنحو ، وأخرى في الفقه والتشريع ، ولعل هذه العلاقة الوطيدة بين المساجد والكتب هي التي جعلت سكان العالم الاسلامي ينظرون الى الكتب باحترام واجلال . فالكتاب ، في نظر العربي ، عالم كامل مستقل ، لذلك فهو يحافظ عليه ويصونه من التلف ويعتز بملكيته ، وقد نصح الوزير المهلبي أبناءه قائلا : « اذا وقفتم تتطلعون الى حوانيت السوق ، فلا تتطلعوا الا الى حيث تباع الأسلحة والكتب . »

وقد كان عدد العرب الذين يجيدون القراءة والكتابة عند شروق الاسلام محدودا جدا ، ولكن بعد جيلين اثنين انتشر التعليم بينهم بسرعة فائقة ، وصاروا يتهافتون على الكتب ، يشترونها أو ينسخونها . وأنتج هذا التهافت ظهور الخطاطين مثل ابن مقلة وابن البواب ، وأخذ كثير من العلماء والأدباء يدرسون هذا الفن الجديد حتى اتقنوه واشتهروا به ، كالجوهري مؤلف قاموس « الصحاح » . وظهر بين هذه الطبقة من عمد الى ادخال الرسم في الكتب ، فبدأوا أولا برسم الأشجار والأزهار ثم الحيوانات وغيرها .

وأكثر ما ساعد على انتشار الكتب وكثرة عددها ، ظهور صناعة الورق ، فصارت الكتب أرخص ثمنا ، وأسهل حفظا ، وأقرب الى أيدي الناس .

دور الكتاب في حياة العرب

كان للكتب دور مهم في حياة العرب الروحية والثقافية . والواقع أن الرغبة في تحصيل العلم ، وتعدد المؤلفات وسهولة الوصول اليها في المجتمع العربي لم يكن لهما مثيل أبدا الا في أيامنا هذه . ومع أن مكتبات المساجد قد رفعت من قيمة الكتب وأتاحت الفرصة لكل راغب في المطالعة ، الا أنها لم تعن بميادين جديدة اقتحمها العرب بعد توطد دعائم مدنيتهم . وتعني بذلك ميادين العلوم التي اقتبسوها ، وأضافوا اليها الكثير ، أو وضعوا أسسها كالحساب ، والفلك ، والكيمياء ، والطب ، وغيرها ، فتولت قصور الخلفاء ومنازل الوزراء والكبراء في عهد الدولة الأموية سد هذه الثغرة ، اذ تأسست فيها مكتبات عامرة بالمؤلفات الخاصة بالعلوم ، انتشرت في جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية . ولما قامت الدولة العباسية دمرت معظم المكتبات التي أنشأها الأمويون ، ما عدا ما كان منها في المساجد . وصاحب قيام هذه الدولة توسع اقتصادي عظيم ، كما تم اكتشاف الورق ، فأقبل العباسيون على جمع المكتبات الفنية ، ولم يبلغ شأوهم في ذلك غير الفاطميين بالقاهرة ، بعدهم بزمن طويل .

فمن ذلك أن أنشأ المأمون في بغداد « دار العلم » ، وكانت تسمى « بيت الحكمة » ، وألحق بها مكتبة كبيرة . واشترى كثيرا من المخطوطات اليونانية من عهد الامبراطورية البيزنطية ، وعهد بترجمتها الى اللغة العربية الى علماء مقتدرين ، كثر عددهم ، حتى غدا بيت الحكمة أشبه بمصنع ضخم يضم عددا كبيرا من المترجمين . وأضاف الخليفة الى البناء الأساسي غرفا لاقامة الطلاب ، كما بنى مرصدا فلكيا . ولما جاء الخليفة المتوكل أمر سنة ٢٣٤هـ (٨٤٨م) بالعودة الى حصر المكتبات في الجوامع ، والعناية بكتب الدين واللغة والأدب فقط . وظل « بيت الحكمة » يؤدي مهمته على نطاق ضيق في عهد خلافة المعتصم . وبقي القيّمون على المكتبة يواظبون على عملهم . ويذكر كتاب « الفهرست » أسماء ثلاثة من هؤلاء القيّمين كانوا في الوقت ذاته من كبار المترجمين من اليونانية والفارسية ، بينهم سهل بن هارون الأديب والسياسي المشهور في ذلك العهد . وحرص هؤلاء على تسهيل وصول الراغبين في العلوم الى الكتب والسماح لهم بنسخها ..

الدولة الفاطمية ترعى المكتبات

واهتمت الدولة الفاطمية بعد استقرارها في مصر بالأدب والثقافة . فأنشأ الخليفة العزيز ، الذي حكم ما بين ٣٦٥ — ٣٨٦هـ ، مكتبة ألحقها بالجامع الأزهر ، شملت أكثر من أربعين غرفة خاصة بالكتب . واحتوت فيما احتوت على عشرين نسخة من تاريخ الطبري ، مهر أحدها بتوقيع المؤلف ، وثلاثين نسخة من قاموس « كتاب العين » ومئة مخطوطة من كتاب « الجمهرة » لابن دريد و ١٨ ألف مجلدة تعنى بالعلوم القديمة .

وأنشأ الحاكم أيضا مكتبة ثانية أسماها « دار العلم » نمت بسرعة حتى أصبحت واحدة من أعظم المكتبات . وفي سنة ٤٣٥هـ اهتم بها الوزير أبو القاسم علي بن أحمد اهتماما خاصا ، فوضع لها الفهارس ، وأصلح أغلفة الكتب المهترئة . وقال عالم فلكي زارها انه وجد فيها ٦٥٠٠ كتاب ورسالة في علم الفلك والهندسة والفلسفة فقط . ولكن جميع هذه المجموعات — باستثناء الكتب الموجودة داخل القصور — ضاعت وتبددت عام ٤٦١هـ أثناء المجاعة التي حدثت بسبب عدم فيضان النيل ، عندما أخذ الموظفون والجنود بعض الكتب لقاء رواتبهم المتأخرة . وروى المقريزي عن شاهد عيان أنه رأى خمسة وعشرين جملا محملة كتبا أخذها أحد الدائنين . وانتزعت الأغلفة الجلدية الثمينة لتصنع منها الأحذية ، واستعملت أوراقها لإيقاد النيران ، وألقي قسم منها في النهر ، ورمي قسم آخر في الصحراء .

مصير المكتبات الاسلامية الكبرى

لقد عانت المكتبات الاسلامية الكبرى القديمة الكثير من التبديد والتدمير ، فقد دمرت المكتبة الملكية وبيت الحكمة في عهد الخليفة المستنصر بالله . وسعى الذين جاءوا بعده لتجديدهما . وروى مؤلف كتاب « تاريخ حياة صلاح الدين » ، أن مكتبة صلاح الدين كانت ملحقة بالمستشفى القديم ، وكان السلطان يزورها بانتظام ، ويقدم له المؤلفون كتبهم لتحظى بموافقته عليها . ووصف المقريزي مكتبة ملكية جديدة ، وكيف كانت تنظم ، وتوضع الكتب فوق الرفوف حسب موضوعاتها . وكان فيها قيّم ومساعدان وناسخان .

ولما احتل صلاح الدين مصر كان عدد الكتب التي قيل أن مكتبة القاهرة احتوت عليها بين ١٢٠ ألفا حسب رواية ، و ٢٦٠ ألفا حسب رواية أخرى . وقد بددت كتب الفاطميين في عهد صلاح الدين ، فحصل أحد العلماء على ١٠٠ ألف مجلدة ، وبيع كثير منها بأسعار بخسة خلال مدة عشر سنوات .

وفـي الأندلس أسس الحكـم المنتصر (٣٤٩ – ٣٦٥هـ) أكبر مكتبة عرفت في القرون الوسطى بمدينة قرطبة احتوت على ٤٠٠ ألف مجلدة . وأنشئت مكتبات في جميع مدن الشمال الأفريقي ، من ليبيا الى أقاصي المغرب .

وأسست المكتبات كذلك في القسم الشرقي من الامبراطورية في الري وشيراز وغزنه ونيسابور وغيرها . ووصف المقدسي المكتبة الكبيرة التي نظمها عضد الدولة بن بويه (٣٦٧ – ٣٧٢) ، وكيف جمع فيها نسخ كل الكتب التي ألفت من قبل .

والى جانب هذه المكتبات العامة الواسعة ، أقيمت مكتبات خاصة تبحث في فروع معينة للعلوم ، كالفلك ، والطب ، والهندسـة ، والكيمياء ، والتاريخ ، والشعر ، أو في علوم متفرقة ، كمكتبة علي بن يحيى المنجم ، المتوفى سنة ٢٧٥هـ ، والذي أسس مكتبة في بيت كبير له بضواحي بغداد أطلق عليها اسم « خزانـة الحكمة » وحوت أنفس المخطوطات في شتى العلوم ، وشاعت شهرتها ، حتى كان الناس يقصدونها من بلدان شتى ، فيجدون لدى صاحبها المأوى والغذاء مجانا . ومما يذكر أن العالم الفلكي «أبا معشر» قدم من خراسان ينوي اداء فريضة الحج ، ومر ببغداد ، وزار خزانة الحكمة ، فأعجب بها اعجابا شديدا أنساه موعد السفر للحج . وكان في بغداد، عندما غزاها المغول، ست وثلاثون من هذه المكتبات الخاصة العامرة . ولم يكن في القاهرة مثلها ، الا انها اشتهرت بمكتباتها العامة « كدار العلم » ، وبمكتبات المساجد ، وكانت هذه من الضخامة بحيث لم يعد هناك ضرورة لإنشاء مكتبات خاصة . وقد بقي العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ، في القاهرة لأنه أعجب بكثرة الكتب المعروضة لإطلاع الراغبين في الاستفادة من تراث العلماء .

وأسس سلاطين فارس وحكام مقاطعاتها مكتبات أيضا . فإلى جانب المكتبة الكبرى التي أسسها عضد الدولة ، أنشأ مجد الدولة ، ومعز الدولة ، وبعض الوزراء ، مثل الصاحب بن عباد مكتبات أصغر منها . وقد رفض الصاحب منصب الوزارة عند الأسرة السامانية ، معتذرا بأنه لا يستطيع نقل كتبه الى مركز عمله ، اذ يحتاج هذا العمل الى ٤٠٠ جمل ، فقبل عذره وأعفى . وعين الوزير أبو الفضل بن العميد المـؤرخ ابن مسكويه قيما لمكتبته . وحدّث هذا المؤرخ ، فقال : « ان جند خراسان هاجموا بيت الوزير وسلبوا كل شيء فيه ، حتى لم يبق قدح يشرب منه ، ولا مقعد يجلس عليه . لكن أبا الفضل لم يبال بكل الخسائر المادية التي أصابته في بيته . وانما حصر همه في مصير المكتبة التي قضى سنوات في جمعها ، وانفق أموالا طائلة في شرائها . ولما علم انها سلمت من شر الجنود سر واغتبط . »

لقد أدى تقدم المدارس وتوسعها ، في المدن والبلدان الاسلامية الكبرى ، الى انشاء مكتبات في كل منها ، كما تفعل الكليات والجامعات اليوم ، مثل المدرسة النظامية ، التي أسسها نظام الملك السلجوقي في بغداد سنة ٤٥٧هـ ، والمدرسة المستنصرية التي أسسها المستنصر العباسي فـي بغداد أيضا سنة ٦٣١هـ ، والمدرسة العزيزية في غزنة ، والمدرسة الظاهرية في دمشق ، وهذه ما تزال باقية ، وغيرها من المدارس العديدة . وقد تحدث القلقشندي مؤلف كتاب « صبح الأعشى » عن المكتبات ، فذكر كيف كان الخلفاء والملوك القدماء يهتمون بها اهتماما عظيما ، وقال : « ان أكبرها ثلاث ، الأولى : مكتبة الخلفاء في بغداد التي بقيت حتى غزو التتار للعراق ، فدمرت وضاعت محتوياتها ، والثانية مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة ، وبقيت الى حين وفاة آخر أولئك الخلفاء . والثالثة مكتبة الخلفاء الأمويين في الأندلس ، وبقيت سليمة الى أن تجزأت الدولة الاسلامية هناك الى دويلات عديـدة ، فضاعت الكتب ، واكتفى الملوك بمكتبات المدارس . »

ورغم ضياع معظم الكتب العربية ، فان الباحث تأخذه الدهشة عندما يرى الألوف المؤلفة من النفائس التي ما تزال موجودة في المكتبات الحديثة . فالمجلدات التي ضاعت من مكتبات الخلفاء العباسيين ، ظهر بعضها في المدرسـة المستنصرية ، ونقل بعضها الآخر الى استانبول . ومجلدات الفاطميين في القاهرة لم تفقد كلها ، فقد نقل قسم منها الى المدرسة الفاضلية . ودار الكتب الأهلية في القاهرة اليوم من أغنى مكتبات العالم في المخطوطات القديمة . ونقل قسم كبير من مكتبات الأندلس الى عواصم شمال أفريقية ، بيد أن عددا كبيرا منها بقي في الأندلس . ونجد كذلك مؤلفات عربية في الهند والباكستان ، اذ نقلها اليهما الفاتحون العرب ، وبالأخص السلطان محمود الغزنوي . وسلم كثير من مكتبات المساجد والبلدان من أحداث الزمان ، والفضل الأكبر في ذلك يعود الى انها وقف اسلامي ، مثل مكتبة حلب ، وغيرها . ويوجد الكثير من نفائس الكتب العربية والمخطوطات في مكتبات في مكة المكرمة مثل مكتبة الحرم المكي الشريف وفي المدينة المنورة مثل مكتبة الحرم الشريف ومكتبة عارف حكمت .

بدأ اهتمام الأوربيين بالعالم الشرقي يزداد منذ القرن السادس عشر ، وأخذو يحرصون على الحصول على المعلومات الموجودة في كتبه ، ولذلك راحوا يجمعونها ويدرسونها » . ومن أوائل تلك المجموعات ما نراه في « ميونيخ » و « باريس » و « الفاتيكان » . وروي أن « فيليب الثالث » ملك اسبانيا استولى على ثلاثة آلاف مخطوطة كانت في سفينة مغربية . وكان « لويس التاسع » ملك فرنسا الذي قاد حملة صليبية فاشلة على مصر ، أول من وضع نواة المجموعة الشرقية في المكتبة الأهلية في باريس .

وجرت عادة التجار والدبلوماسيين الغربيين في الشرق أن يعودوا الى بلادهم ، ومعهم مجموعات من الكتب يهدونها الى المكتبات الكبيرة . ومن هؤلاء رجل اسمه « ريتش » كان متضلعا بالعربية والفارسية وغيرهما من اللغات الشرقية ، مما جعله خبيرا بالتاريخ الاسلامي ، وقد جمع عددا كبيرا من المؤلفات المهمة أثناء اقامته في الشرق الأوسط ، ولما مات أهدت أرملته تلك المجموعة الى المتحف البريطاني .

وفي أول القرن السابع عشر كان « أدوارد بكوك » في حلب ، فعرف الفوائد التي يجنيها طلاب اللغة العربية الانكليز ، من مطالعة النسخ الأصلية للمؤلفـات ، فاشترى الكثير منهـا وأهداهـا الى المكتبة « البودلية » فـي جامعة « أكسفورد » .

وهكذا فان كثيرا من المكتبات الأوروبية تحتوي على نفائس لا تحصى من المؤلفات العربية والاسلامية ، وهي تحرص عليها كل الحرص . ■

للشاعر يوسف زاهر

يا عطر أزهاري ، وروض اخائي   وربيع أشعاري ، ورجع ندائي
يا وحي أنغامي ، ولحن قيالري   وسماء الهامي ، وناي غنائي
مالي أرى الوجه الصبيح كأنه   مرآة ظلّ سحابة دكناء
وأرى الجبين – وكان نبع مسرة –   عزّت مشارعه على الارواء
وكأن جسمك كلّه نصب بدا   للعين وسط مفازة قفراء

لما رأيتك هكذا عصف الأسى   بخواطري ، وتضرمت أهوائي
وتقاسمت قلبي الظنون كأنه   كنز بوكر عصابة رقطاء
وسألت عنك فجاوبتني نظرة   والعين تسبق منطق الفصحاء
وعلمت أمرك فاستهاج مشاعري   ذكرى وفائك لي ، وأي وفاء !
فشددت أوتار الأسى بقيائر   مشبوبة الألحان والأصداء
ونظمتها ورد السلوّ لمهجة   تتلوه في الأصباح والأمساء

أثران كانا سلوتي وعزائي   ضاعا فضاع تعلّلي ورجائي
كانا وديعة راحل ودعته   يوم الرحيل بزفرتي وبكائي
لا ، بل ذرفت عليه ذوب حشاشتي   ورويت حرّ جوانحي بدمائي
لولا مآثره العديدة كفكفت   دمعي لفاضت اثره حوبائي
ولربّ مسبحة لدي وساعة   عطفا عليّ فأمسكا بذمائي
قد كنت أنظر فيهما آثاره   فأكاد ألقى فيهما تأسائي
ان سبّحت كفي شعرت بأنها   قد صافحت كفّ العزيز النائي
واذا رنت نحو الزجاجة مقلتي   أبصرت وجه أبي على « الميناء »
فكأنني بين المهامه راحل   ضلّ الطريق فتاه في الصحراء

يا صاحبي هذي قصيدة شاعر   يفديك في السراء والضراء
هي ترجمان معرب لعواطف   بُعثت بها الآباء في الأبناء





دِراسَةُ الأحوالِ الجوّيّة وأهمّيّتها في صِناعَةِ الزيْت

بالاضافة الى الاقمار الاصطناعية تستخدم في دراسة الاحوال الجوية بالونات تصنع من لدائن مقواة لا تنفجر في الطبقات الجوية العليا.

تصوير : « إسا »

■ تتأثر أعمال صناعة الزيت في منطقة ما بالظروف المناخية لتلك المنطقة وبالتقلبات الجوية الطارئة عليها تأثيراً متفاوت النتائج ، يكون تارة معيقاً وتارة معطلاً إلى درجة تتوقف عندها عمليات كثيرة كأن تتعطل أعمال تحميل الناقلات في الفرض البحرية ، فتتعطل تبعاً لذلك أعمال التكرير وربما الإنتاج ، أو كأن تتعطل أعمال التنقيب فتتوقف أعمال كثيرة أخرى تتصل بها ، أو يحد منها .

■ يؤمل أن يتوصل علم الأرصاد ودراسة الأحوال الجوية العالمية في غضون العقد القادم من القرن الحالي إلى إجراء مسح شامل للظروف الجوية التي تتأثر بها الكرة الأرضية عامة كما يؤمل أن يصار الى استقراء التقلبات المناخية المفاجئة قبل وقوعها بفترات زمنية طويلة لتفادي الأخطار التي قد تنجم عنها .

يعتمد تطور استقراء الأحوال الجوية على عاملين مترابطين ، أولهما سرج الآلات الحاسبة الألكترونية في دراسة المعلومات المجمعة عن الأحوال الجوية وتحليلها ، والثاني استخدام برنامج فضائي عملي وفعال لجمع تلك المعلومات ، وارسالها الى آلات حاسبة ألكترونية قادرة على استقراء أحوال الجو والظروف المناخية قبل وقوعها بثمان وأربعين ساعة .

والمعروف أن مركز براكنل (Bracknell) التابع لمكتب الأرصاد الجوي البريطاني مجهز بآلة حاسبة ألكترونية تزودها بالمعلومات المناخية أكثر من ١٢٠٠ محطة رصد أرضية و ٣٠٠ سفينة و ٦٧٠ بالون للرصد الجوي ، وتقوم هذه الحاسبة بتحليل المعلومات المجمعة لديها من أجواء مختلفة من سطح الكرة الأرضية يتراوح مداه ما بين ماليزيا شرقا وهاواي غربا ، وما بين القطب الشمالي شمالا وأواسط أفريقيا جنوبا ، وتشمل ارتفاعات ثلاثة ، هي : مستوى سطح البحر ، و ١٨٠٠ قدم و ٣٨٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . ثم تقوم الآلة بعد ذلك باستقراء أحوال الجو قبل وقوعها بفترات تتراوح بين ١٢ و ٤٨ ساعة ، كما تتكهن بهطول الأمطار قبل وقوعها بأربع وعشرين ساعة ، وذلك بعد دراسة أحوال الجو على عشرة ارتفاعات متفاوتة في مناطق متقاربة ، بدلا من ثلاثة . ثم تقوم برسم خرائط مناخية للظروف الجوية تتفق والمعلومات المحللة فيها . وتنتج هذه الآلة الحاسبة قرابة ٤٠٠ خريطة مناخية يوميا يترجمها موظفو الأرصاد المختصون الى مصطلحات جوية مفهومة .

ولعل عدم توفر الوسائل الملائمة لجمع المعلومات المناخية في بعض المناطق من العالم هو ما يعيق انجاز تلك الدراسة الشاملة . لذلك فان

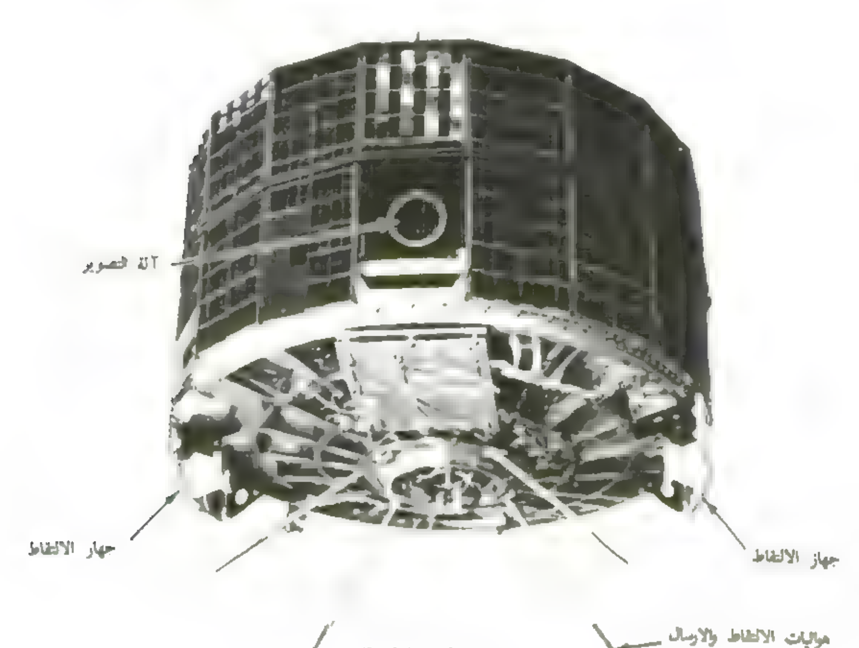


اقتفى القمر الاصطناعي « إسا — ٥ » أثر ثماني عواصف في نصف الكرة الأرضية الشمالي في ١٤ سبتمبر ١٩٦٧ ، بما فيها « الهيروكين بولاه » المدمرة . ويعتقد أن هذا هو أكبر عدد من العواصف يمكن لقمر اصطناعي أن يكشف عنه في يوم واحد . وقد أرسل القمر الاصطناعي هذه الصورة على شكل « إشارات فوتوغرافية » تم تجميعها وتحليلها بواسطة الآلة الحسبة الألكترونية ، فسجلتها على شريط خاص . ثم عرض الشريط على شاشة صغيرة بواسطة جهاز « الكينسكوب » ، فكانت هذه الصورة الواضحة .
تصوير : « إسا »



يدور القمر الاصطناعي حول نفسه وحول الأرض ، وعندما يواجه سطح الأرض تنفتح عدسة آلة التصوير وتلتقط صورا عديدة لمساحات كبيرة منه . وتمثل الصورة الثنية القمر الاصطناعي (إس – ٣) مجهزا بآلة التصوير وأجهزة استقبال المعلومات وارسالها الى الأرض لدراستها وتحليلها .

تصوير : « إسا »





إحدى ثلاث سفن أمريكية مزودة بهوائيات ضخمة ومعدات ألكترونية لمتابعة مسار المركبات الفضائيةوالأقمار الاصطناعية أثناء دورانها حول الأرض أو أثناء انطلاقها نحو أجواء القمر . تصوير « ناسا »

أهم ما تعمل مراكز الأرصاد العالمية على تحقيقه في الوقت الحاضر هو تغطية هذه المناطق بما يكفل جمع المعلومات المناخية عن أجوائها . ويقتضي ذلك تطبيق أساليب فنية حديثة ، واتباع برامج علمية لجمع المعلومات المناخية ودراستها وتحليلها على الآلات الحاسبة الألكترونية التي تخضع بدورها للتحسين والتطوير المستمرين . من هنا وجد نظاما البالونات والأقمار الاصطناعية لدراسة الأحوال الجوية العالمية .

من المشاريع التي ينتظر أن تؤدي الى نتائج طيبة في مجال دراسة الأحوال الجوية مشروع غوست (Ghost) للبالونات الذي يشرف على تطبيقه فريق من علماء المركز الوطني للأبحاث الجوية في « كولورادو » بالولايات المتحدة الأمريكية . فقد أطلقت ضمن هذا المشروع مجموعة من البالونات المجهزة بأحدث الآلات لاستقراء الأحوال الجوية من إحدى قواعد الاطلاق في « نيوزيلندة » . ومن الجدير بالذكر أن البالونات العادية تتمدد في الطبقات الجوية العليا وتنفجر بفعل تخلخل الهواء في تلك الطبقات ، لذلك صنعت البالونات المستخدمة في هذا البرنامج من نوع خاص من اللدائن (البلاستيك) القوية ، لا تنفجر بفعل تمدد الغاز بداخلها ، بل تظل ترتفع الى مستقر لها تطوف فيه. ويكون كل بالون من هذا النوع مجهزا بجهاز ارسال تلتقط شاراته محطات رصد أرضية . وقد أكملت بعض بالونات هذا البرنامج دورانها حول الأرض ، وظل أحدها يدور في الطبقات الجوية العليامدة ٢٣٤ يوما .

وينتظر أن يكون هذا البرنامج خطوة جادة في سبيل برامج رصد أسهل وأعمق ، بحيث يطلق ضمن الواحد منها آلاف من البالونات المجهزة بكافة أجهزة القياس ومعدات الرصد ، والتي تدور باستمرار حول الأرض . وتعترض هذا السبيل مشكلة فنية هامة وهي جمع المعلومات التي يسجلها هذا العدد الكبير من البالونات بطريقة اقتصادية ومستمرة . ويعكف الآن فريق من علماء الفضاء على ايجاد حل لهذه المشكلة ، ويأملون أن يتمكنوا من تحديد مدار معين لكل بالون ، وذلك باستخدام أمواج « أوميغا » التي يستخدمها عادة رجال البحرية . ثم يطلق في الفضاء قمر اصطناعي تكون مهمته الاتصال بهذه البالونات كل على حدة . وسيكون في وسعه أن يستقبل المعلومات من حوالي ١٠٠٠ محطة للرصد ، ثابتة كانت أو متحركة : بالونا أو سفينة ، أو محطة رصد برية . ويذكر هؤلاء العلماء أن في وسع ثلاثة أقمار اصطناعية من هذا النوع ، تطلق فوق منطقة خط الاستواء ، أن تستقبل المعلومات التي يرسلها ١٢٠٠٠ بالون ، بالاضافة الى المعلومات التي ترسل من جهات أخرى ، وترسلها بدورها الى الآلات الحاسبة الألكترونية لدراستها وتحليلها .



في مختبر الأبحاث الجوية :

(أ) يقوم العلماء بتحليل المعلومات المستقبلة .

(ب) تنقل المعلومات المحللة ، بصورة ثقوب ، على بطاقات خاصة .

(ج) يقوم الأخصائيون بتحديد البرنامج الخاص الذي سيجري بواسطته تحليل المعلومات مرة أخرى على الآلة الحاسبة الألكترونية .

(د) بعد أن تقوم الآلة بتحليل المعلومات نهائيا طبقا للبرنامج المحدد لها ، يقوم أخصائيو الأرصاد الجوية بدراسة النتائج واستخلاص نماذج استقراء الأحوال الجوية منها .

تصوير : « إسا »

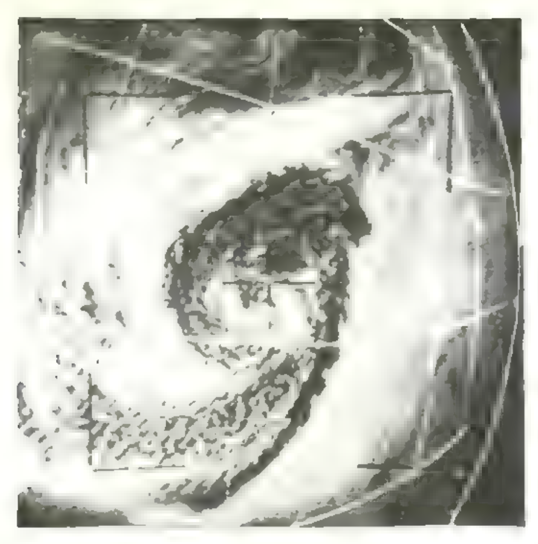
دور الأقمار الاصطناعية «إسّا» ESSA في مجالات دراسة أحوال الجو

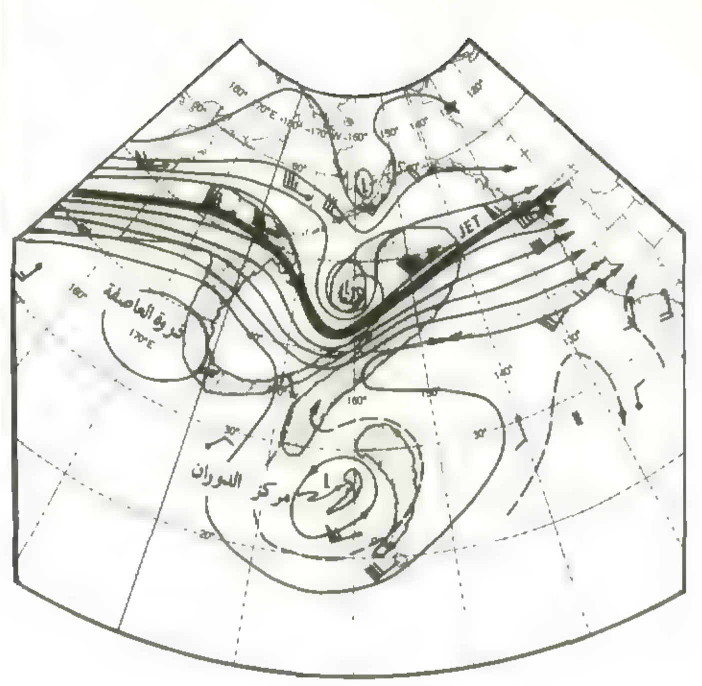
تمّ في ٢٨ فبراير عام ١٩٦٦ في الولايات المتحدة الأمريكية اطلاق القمر الاصطناعي الثاني للمسح الجوي البيئي بنجاح ، وبذلك أنجز أول برنامج لدراسة الأحوال الجوية العالمية بواسطة الأقمار الاصطناعية .

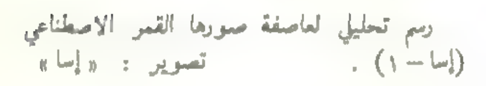
وكان قد بدىء بهذا البرنامج في الثالث من فبراير من العام نفسه عندما أطلق القمر الاصطناعي الأول للغرض نفسه . ويقوم هذان القمران الاصطناعيان بإمداد محطات الاستقبال الأرضية بصور واضحة لأحوال السحب في الأجواء الأرضية كافة والأجواء المحلية على أساس دوري منتظم .

ويلتقط القمر الاصطناعي الأول صور السحب فوق الأرض ، ثم يجري تحليلها فيما بعد في محطتي « فيربانكس Fairbanks » في ألاسكا و « والوبس — Wallops » في فرجينيا للضبط والتقاط المعلومات . ويكون التقاط هذا القمر للصور في المنطقة الممتدة بين القطبين من أجواء الكرة الأرضية في ١٤ محورا كل ٢٤ ساعة . ثم ترحّل هذه الصور من محطتي الالتقاط الى مرافق تحليل المعلومات في مركز الأقمار الاصطناعية لدراسة الأحوال الجوية البيئية في سوت لاند (Suitland) حيث يجري تحليلها ودراستها وارسالها الى المعنيين بالأمر في شتى أنحاء العالم خلال ساعتين من تسلمها .

أما القمر الاصطناعي المزود بآلات تصوير وارسال تعمل تلقائيا ، فهو الى جانب تصوير السحب وتحركاتها ، يقوم بارسالها تلقائيا الى



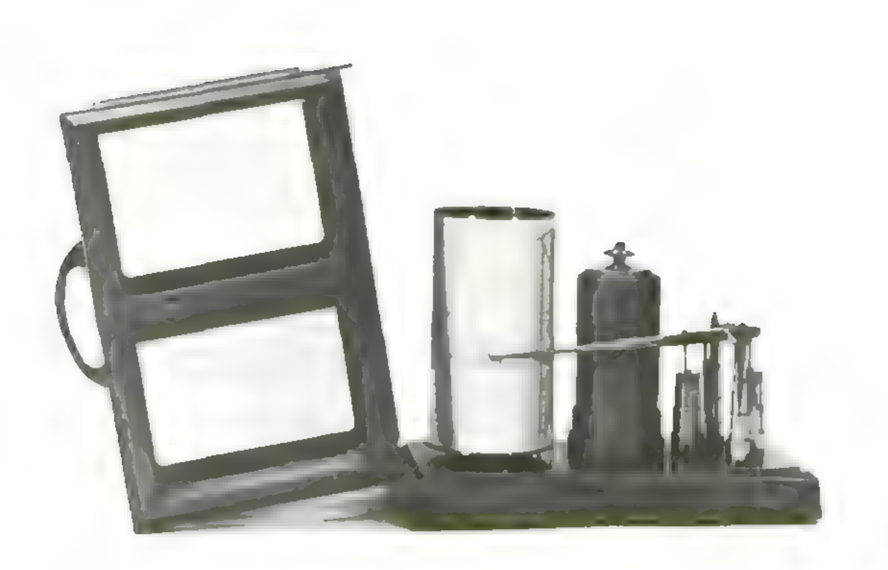




رسم تحليلي لعاصفة صورها القمر الاصطناعي
(إسا — ١) . تصوير : « إسا »

إحدى آلات التصوير في مركز للأرصاد الجوية في ولاية « مساتشوستس » ويبلغ ارتفاعها حوالي ٢،٥ من الأمتار ، وعرضها نحو ثلاثة أمتار ، وتزن نحو ٣ أطنان . وهي معدة لتتبع الأقمار الاصطناعية ورصد الظواهر الجوية . ويستطيع العلماء بواسطتها أن يلتقطوا صورا للنجوم التي يتعذر رؤيتها بمناظير تقرب الأجسام ٣٠٠ مرة لكي تصبح منظورة بالعين المجردة ، أو تصوير كرة مضاءة قطرها ٦ أمتار على بعد يساوي بعد القمر عن الأرض . تصوير : « ناسا »

جميع محطات الاستقبال الواقعة ضمن مـداه الارسالي . ويلتقط هذا القمر الاصطناعي أثناء دورانه صورا للمناطق الواقعة تحته مباشرة مرة كل ٣٢٥ ثانية . وبعد التصوير بثماني ثوان ، يبدأ بإرسال صوره الى المحطات الأرضية ، فترد اليها بعد مائتي ثانية من ارسالها على شكل صور تلفزيونية مربعة الشكل تمثل الواحدة منها مساحة سطحية مقدارها أربعة ملايين ميل مربع . ويتألف الجهاز الخاص باستقبال الصور التي يرسلها هذا القمر الاصطناعي من هوائي ، ومكبر ، ولاقط راديو ، وجهاز للعرض . وترى كل صورة من هذه الصور أحوال السحب في المنطقة التي التقطت فيها ، وتستطيع محطة استقبال أرضية واحدة أن تلتقط ثلاث صور للسحب في كل مرة يعبر القمر الاصطناعي أجواءها ، ويبلغ معدل ذلك ثلاث مرات يوميا .



« الباروغراف » جهاز مماثل للبارومتر ، تستخدمه أرامكو في تسجيل الارتفاعات والضغط الجوي .
تصوير : مودي

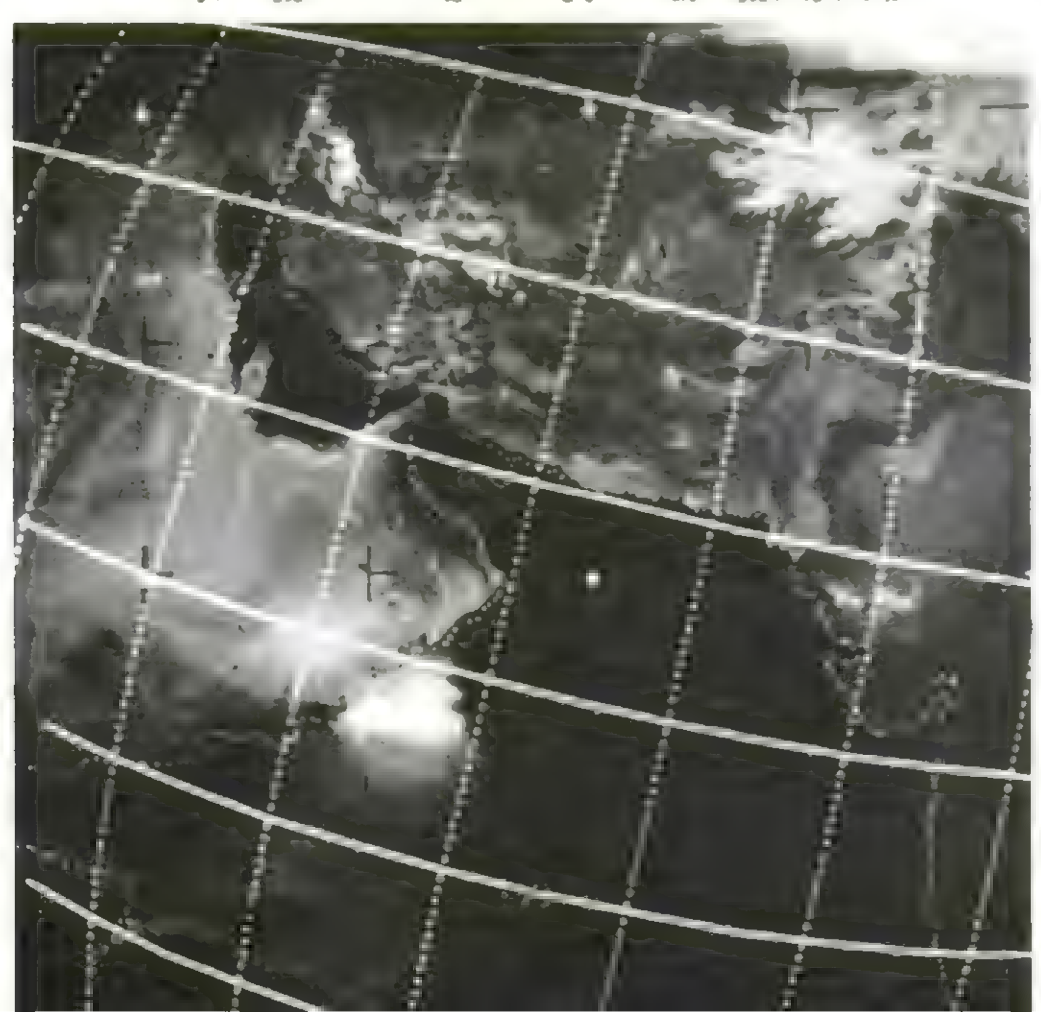
ان الصور المرسلة من الأقمار الاصطناعية هي عبارة عن معلومات عن الوضع الجوي في المناطق التي يجري التصوير فيها . وعلى ضوء هذه المعلومات يستطيع علماء الأرصاد الجوية أن يحددوا مواقع مقدمات العواصف ، والأعاصير والتيارات الهوائية ، وظواهر الطقس الرديء ، والعواصف الاستوائية والمدارية واتجاهاتها ، كما يستطيع علماء الأرصاد بواسطة هذه المعلومات أن يتكهنوا بأوقات حدوث الأعاصير العادية ذات الارتفاعات المتوسطة ، والعواصف الاستوائيـة والمدارية المصحوبة بالأمطار . ويستدل بواسطتها أحيانا على وجود بعض الظواهر المناخية في الأجواء المصورة ، من اضطرابات ، أو فترات هدوء ، واعتدال مناخي ، بالاضافة الى الاستدلال على أحوال الرياح السطحية وأحوال البحار ، بل ومدى رطوبة سطح الأرض وجفافه أحيانا .

ويستطيع الخبراء بمجرد إلقاء نظرة الى إحدى الصور أن يتعرفوا على بعض هذه الظواهر ، إلا أن بعض الظواهر المهمة مما يتعلق بالسرعة الأفقية والدوامية للعاصفة ومدى انفراجها وتشعبها لا تكون واضحة المعالم في الصور ، الأمر الذي يستدعي جمع معلومات اضافية عنها بوسائـل أخرى ، ثم تحليل هذه المعلومات بواسطة الآلات الحاسبة الألكترونية .

جهاز «الهايغروثيرموغراف» وهو من الأجهزة التي تستخدمها أرامكو في تسجيل الرطوبة النسبية ودرجة حرارة الجو .
تصوير : مودي

منظر شامل لحالة الجو في العالم . وقد جمع هذا المنظر من عشرات الصور المرسلة بواسطة الأقمار الاصطناعية أثناء دورانها في محاور متعددة فوق سطح الأرض . تصوير : «إسا»

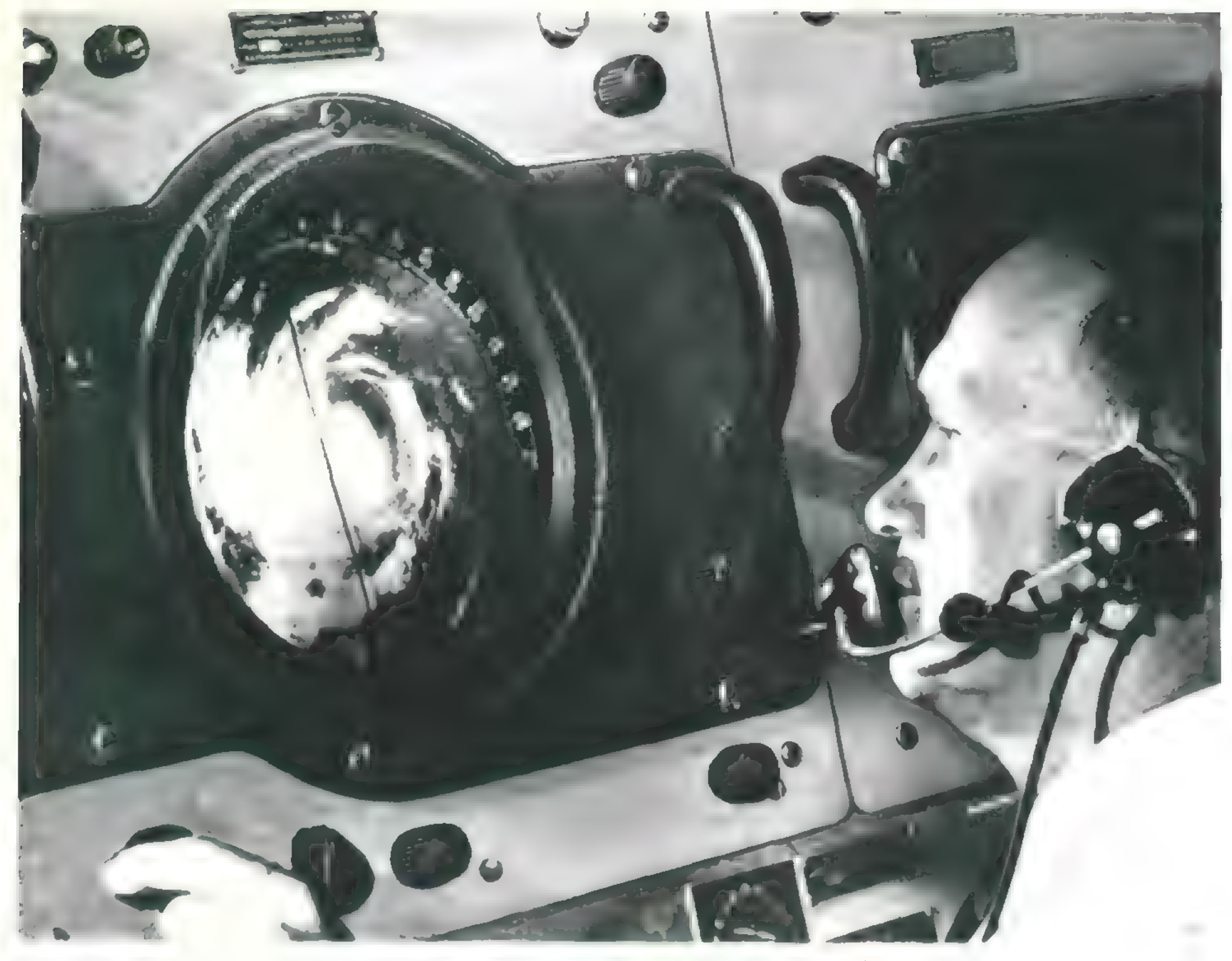
منطقة الخليج العربي كما بدت في صورة التقطت بواسطة أحد الأقمار الاصطناعية . ويبدو جنوب الجزيرة العربية وقد تعرض لعاصفة قوية . تصوير : «إسا»





هوائي ضخم ، قطره نحو ٦٤ مترا ، تابع لإدارة الطيران والفضاء الأمريكية معد لاستقبال المعلومات عن الشمس والأجواء الشمسية . وهو على درجة كبيرة من الحساسية بحيث يتأثر بالإشارات التي تبلغ قوتها $\frac{١}{(١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠)}$ من الواط .

تصوير : ناسا



عاصفة « هيروكينية » يسجلها هذا الرادار . تصوير : إسا »

وقد ترى الصور المرسلة من الأقمار الاصطناعية منطقة سحب ذات تخلخل مسامي تدل على وجود تيارات حرارية في المنطقة المنخفضة من الجو (٥٠٠٠ — ٨٠٠٠ قدم) تعلوها طبقة هوائية ثابتة . وفي مثل هذه الأحوال يحذر الطيارون من الطيران فوق هذه المناطق لاحتوائها على جيوب هوائية . ويكثر وجود المناطق السحابية المخلخلة فوق المحيطات في المناطق ذات الهواء البارد ، وفي المناطق الاستوائية الشرقية ذات الضغط العالي شبه الدائم . أما الخطوط ذات التخلخل المسامي التي تلاحظ في بعض الصور ، فانها تشير الى مجاري الرياح المنخفضة ، وخاصة عندما تكون هذه الخطوط ذات ميل عمودي قليل . وفي حالة كهذه يحدد هذا الميل اتجاهات الرياح السطحية .

وبالاضافة الى ذلك تستخدم الصور التي تلتقطها الأقمار الاصطناعية في تحديد سرعة الريح المصحوبة بأعاصير ماطرة ، وفي معرفة مواقع التيارات الهوائية السريعة (Jet Streams) وحالات تشكيلها وغير ذلك ، مما يدل على أحوال جوية مضطربة أو ثابتة . ويؤمل أن تستحدث أساليب أخرى تساعد على الكشف عن ظواهر مناخية أخرى ، قبل وقوعها ، بواسطة هذه الصور .

مستقبل الأقمار الاصطناعية في مجالات الرصد الجوي

يعكف المشرفون على برنامج إسا (Essa) لدراسة الأحوال الجوية بالأقمار الاصطناعية على التخطيط لمستقبل أفضل لهذا البرنامج ، وبالتالي لأعمال الرصد الجوي ومعرفة ظروف الأحوال الجوية قبل وقوعها . ولأنه لا يمكن للأقمار الاصطناعية الحالية أن تصور السحب الا نهارا ، فان ثمة جهازا ، ما زال قيد الدراسة والتجربة لتحليل الأشعة تحت الحمراء ودراسة مزيد من المعلومات عنها ، في طريقه الى الظهور الى حيز الوجود ، مما سيجعل التصوير ليلا بواسطة

السيد عمر رشيد سنبل ، راصد جوي في مطار الظهران الدولي ، يستقرىء سرعة الريح واتجاهها تمهيدا لتسجيلها على خرائط الجو السطحية . تصوير : عبد اللطيف يوسف



هذه الأقمار الاصطناعية أمرا وشيك الوقوع . كما يحاول العلماء تطوير أجهزة التصوير في الأقمار التي ستطلق مستقبلا ، بحيث تتحول الى أجهزة تصوير وتحليل في الوقت نفسه ، الأمر الذي سيوفر كثيرا من الجهد والوقت .

ويخطط المشرفون على البرنامج أيضا لاستبدال الأقمار الاصطناعية القديمة بأخرى حديثة مزودة بجميع الأجهزة والمعدات التقنية المسرجة حاليا في خدمة هذا المجال العلمي الهام . كما يأملون أن يصبح برنامج الأقمار الاصطناعية هذا أكثر فعالية مما هو عليه ، وذلك بإضافة أجهزة التصوير العمودي الى أجهزة التصوير الأفقي المستخدمة حاليا ، وأجهزة أخرى تجعل من تصوير مكان واحد من الجو من ارتفاع يبلغ نحو ٢٢٣٠٠٠ ميل عن سطح البحر تصويرا مستمرا لمشاهدة الظواهر المناخية فيه دون تقطع ، أمرا ممكنا . كما يأملون أيضا أن يتمكنوا من اجراء مسح شامل ودقيق للأجواء العالمية ، يمكّن الانسان من مواجهة الظواهر الجوية العنيفة قبل وقوعها وتدارك مخاطرها ومحنها .



السيد أحمد طائفي ، راصد جوي في مطار الظهران الدولي ، يسجل المعلومات الواردة عن الظواهر الجوية المختلفة على خرائط الجو السطحية ، وهي تشمل قارات آسيا وأوروبا وأفريقيا .
تصوير : عبد اللطيف يوسف

تلعب أبراج المراقبة في المطارات دورا فعالا في مجالات الرصد الجوي . والجدير بالذكر أن المديرية العامة لمطار الظهران الدولي تسهم إسهاما كبيرا في دراسة الأحوال الجوية وتقلباتها الطارئة ، وتلقي المعلومات الكفيلة بسلامة هبوط الطائرات وإقلاعها . وتضطلع بهذه المهمة ثلاثة أقسام رئيسية يتولى أمر الاشراف عليها فنيون سعوديون ، وهذه الأقسام هي :

قسم الملاحظات : ويقتصر عمله على استقراء الأحوال الجوية لتسجيلها على خرائط الجو السطحية .

قسم المناخ : وهو خاص بتسجيل المعلومات الواردة اليه من قسم الملاحظات ومن شتى أبراج المراقبة في العالم .

قسم التنبؤ بحالات الجو المنتظرة : ويقتصر عمله على دراسة الظواهر الجوية المتوقع حدوثها خلال فترات معينة ، وتعميمها على المرافق المعنية في العالم .



جزء من الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية كما بدا من الجو على ارتفاع (١٠٠) عقدة . وقد التقطت هذه الصورة بواسطة آلات تصوير خاصة حوتها المركبة الفضائية «أبولو - ٦» في رحلتها الفضائية في ١٤ أبريل ١٩٦٨ .
تصوير : «ناسا

لعل صناعة الزيت أكثر الصناعات الحديثة تعرضا لمخاطر التقلبات الجوية ، لذلك فقد حرصت شركات الزيت على بذل المال والجهد في سبيل اجراء دراسات وأبحاث واسعة النطاق من شأنها أن تقلل من هذه المخاطر ، وأن تلقي مزيدا من الضوء على الظواهر المناخية والتقلبات الجوية التي قد تؤثر في أعمالها ، كأحوال البحار ، وسرعة أمواجها وقوتها ، وأحوال الريح وسرعتها واتجاهاتها .. الخ .

وحتى عام ١٩٥٧ لم تكن هنالك أية مراكز لدراسة الأحوال الجوية في المناطق المغمورة في منطقة الخليج العربي ، وكان يعتمد في عمليات الزيت في هذه المناطق على نشرات الأحوال الجوية التي كانت تصدر عن مكتب للرصد تابع لسلاح الجو البريطاني . ثم ما لبثت شركات الزيت العاملة في المنطقة أن شكلت هيئة الأرصاد الجوية العالمية ، المعروفة باسم « امكوس - Imcus » ، والتي أخذت تمد هذه الشركات بنشرات منتظمة للأحوال الجوية لا سيما في المناطق المغمورة . ثم ما لبثت « امكوس » أن اقترحت على جميع شركات الزيت العاملة في المنطقة أن تنشيء لها محطات رصد أرضية محدودة لجمع المعلومات المناخية وارسالها اليها ، لتتمكن بدورها من اعداد نشرات شاملة بالأحوال الجوية للمنطقة بأكملها ، كما اقترحت أن تظل هذه المحطات عاملة في الظروف العادية والطارئة على حد سواء .

وتفيد شركات الزيت من المعلومات الواردة في هذه النشرات في شتى أعمالها ، كالطيران والتنقيب وتشغيل أجهزة الحفر في المناطق المغمورة وتحميل الناقلات وغير ذلك . ويبلغ عدد الشركات المستفيدة من خدمات هذه الهيئة ١٢ شركة ، بما في ذلك شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو) .

وتساهم أرامكو في دراسة الأحوال الجوية لمنطقة الخليج من خلال محطات رصد برية أنشأتها في كل من القيصومة ، والسفانية ، ورأس تنورة ، والظهران ، وبقيق لتسجيل نسبة الرطوبة ودرجات الحرارة وأحوال الرياح واتجاهاتها والضغط الجوي في أوقات مختلفة من الليل والنهار ، ومحطات رصد بحرية في كل من فرضة منيفة ، وفرضة رأس تنورة الشمالية ، وفرضة السفانية ، والبئر رقم ٥٦ ورقم ٥٧ في المناطق المغمورة في منطقة السفانية ، لتسجيل حركات المد والجزر ، وحرارة ماء البحر وحرارة الجو وغير ذلك . وتعمم الشركة القراءات التي تسجلها هذه المحطات على اداراتها المختلفة ، كما ترسلها الى هيئة « امكوس » التي ترسل بدورها للشركة معلومات أكثر شمولا عن الأحوال الجوية للمنطقة بكاملها . كذلك ترسل الشركة تسجيلاتها هذه الى « هيئة المسح الجوي والبحري » في واشنطون حيث تقارن بتسجيلات الأقمار الاصطناعية للأحوال الجوية في المنطقة نفسها . ومقابل ذلك تتلقى (أرامكو) من هذه الهيئة نشرات دورية منتظمة عن الأحوال المناخية العالمية المتجمعة لديها بواسطة الأقمار الاصطناعية والبالونات ، ومحطات الرصد المختلفة ، والآلات الحاسبة الألكترونية : وغير ذلك مما قدمته ولا تزال تقدمه تكنولوجيا الأرصاد الجوية .

ان إجراء التحليل الدقيق المتقن للظروف المناخية في منطقة الخليج العربي لمما يؤثر تأثيرا مباشرا وملموسا على صناعة الزيت أو المشاريع الانمائية المتعددة التي أنشأتها دول المنطقة لدعم أسباب رخائها وازدهارها ■



شراعنا الأبيض

بقلم الاستاذ عبدالله حشيمة

— وآخر الأخبار عن تلك البلاد ؟

قال « ديوغو » لزميله وصديقه « بدور الفارس كابرال » ، في حديث دار بينهما عن البلاد التي اكتشفها « كريستوفر كولمبس » عبر المحيط الأطلسي عام ١٤٩١م .

قال « بدرو الفارس كابرال » :

— آخر الأخبار عنها انها غير الهند ، وأنها قارة عظيمة الاتساع عميمة الخيرات ، ومن ملكها ملك معين ثروة لا ينضب .

قال « ديوغو » آسفا :

— فاتتنا اذن فرصة امتلاكها .

قال « بدرو » بمرارة :

— أما تذكر ، حين جاء « كريستوفر كولمبس » يضع نفسه في خدمة جلالة الملك ، بأي حرارة رجوت جلالته الاصغاء اليه ، وعدم الأخذ بأقوال الذين أتهموا كولمبس زورا بالدجل والشعوذة ؟

— من سوء حظنا هذا .

— ومن حسن حظ اسبانيا .. والفضل يعود الى الملكة « ايزابيلا » التي اقتنعت بصحة نظريته ، وسهلت له سبيل القيام برحلته الموفقة .

قال « ديوغو » ، كمن فطن لأمر :

— اسمع ، يا « بدرو » .

— ماذا ؟

— أما قلت أن تلك البلاد غير الهند ، وانها قارة عظيمة الاتساع عميمة الخيرات ؟

— هذا ما أثبته « أمريكو فسبوسيو » .

— ما ضرّ اذن أن يكون لنا ما كان للأسبان منها؟

قال « بدرو » مهتما :

— كيف ؟

قال « هيوغو » مفسّرا :

— ليست الأرض التي اكتشفها « كولمبس » غير جزء من تلك القارة ، وكما استطاعت سفنه الوصول الى الجزء الذي احتله باسم مليكه ، تستطيع سفننا كذلك الوصول الى جزء آخر نحتله باسم مليكنا .

قال « بدرو » متهللا :

— حقا ما قلت .. دعني أفكر في الأمر ، وقد أقدم أنا نفسي على هذا العمل .

قال « ديوغو » متحمسا :

— أقدم ، وأنا سأكون معك .

جلا العرب عن أوربا تاركين وراءهم أثرا ثقافيا ممثلا في رجالات بارزة أمثال أحمد ابن ماجد ، أحد كبار الملاحين آنذاك . وكانت بينه وبين « بدرو الفارس كابرال » روابط صداقة.

ولما عقد « بدرو » العزم على العمل برأي صديقه « هيوغو » لم يجد أحدا يعينه على ذلك غير أحمد . قال له :

— ما رأيك يا أحمد في ما يقال عن الأرض الجديدة التي اكتشفها « كولبس » ؟

قال أحمد :

— وما يقال عنها ؟

— انها غير الهند .. انها قارة عظمى ، ولا تعرف الى الآن حدودها ، وقد يكون بينها وبين الهند مدى بعيد من مياه المحيطات الواسعة .

— هذا رأيي أيضا ، ونحن العرب عرفناها قبل « كولبس » .

قال « بدرو » مأخوذا :

— ماذا تقول ، يا أحمد ؟

قال أحمد مبتسما :

— الحق أقول ، وخير دليل على قولي ما تراه هنا ؟

وأشار ابن ماجد الى مخطط بحري معلّق على الحائط ، فنظر « بدرو » اليه ملهوفا .

وقال أحمد :

— ما ترى ؟

— أرى خطا أحمر .

— والى أين يمتد هذا الخط على الشاطيء الأفريقي؟

— الى الرأس الأخضر .

— ومن هناك ينحرف غربا كما ترى ، والسير في اتجاه مستقيم عبر المحيط ، وينتهي عند أرض عرفناها منذ قرنين ، وأطلقنا عليها اسم « الجزيرة الخضراء » ، وهي في رأيي جزء من القارة ، التي فتح « كولبس » الطريق اليها .

— شيء خطير ما أسمع منك .

وسكت « بدرو » لحظة كان قلبه خلالها يخفق بشدة ، ثم قال :

— أتريد يا أحمد أن نتعاون على انجاز عمل فيه خدمة كبرى للعلم ؟

قال أحمد :

— ما تعودنا نحن العرب أن نتردد في القيام بأي عمل في سبيل خدمة العلم .

— توافقني اذن .

— علام ؟

— على إعداد حملة نجريها معا الى جزيرتكم الخضراء تلك ؟

— لا شيء يحملني على عدم موافقتك .

— ولا ترى مانعا من أن تكون هذه الحملة

باسم « بدرو الفارس كابرال » ؟
قال أحمد بشيء من المرارة :
— بدرو الفارس كابرال له حق الغالب على أحمد بن ماجد العربي .
قال « بدرو » :
— لا غالب ولا مغلوب في العلم .
— لا تعترف السياسة بهذا .
— يعترف التاريخ به .
— اذا سمحت السياسة .. وعلى كلّ ، ابدأ بإعداد حملتك يا صديقي ، وحسبي أن أؤدي للعلم خدمة ترتاح نفسي اليها .
— ولي بعد رجاء .
— وما رجاؤك ؟
— لا تجهل أن كولبس عرض خدمته على «الدون مانويل » ، قبل أن يمضي ، ولم يحفل « الدون مانويل » بالعرض ، متأثرا بأراجيف رجال الحاشية.
قال أحمد متضاحكا :
— اذ صوّر هؤلاء له أن الرجل مغامر جاهل ولا قيمة لمشروعه الخيالي في نظرهم .
— وأخشى ان جهرت برغبتي في اكتشاف أرض جديدة لجلالة الملك ، أن يصوروني له كذلك .
— ما حيلتك في ذلك ؟
— سأعد حملتي في الظاهر الى الهند ، ومتى أقلعنا من هنا نوجهها الى حيث نشاء ، من غير أن يدري ، حتى من معنا ، بقصدنا .
— والملك .. أيسكت عن هذه الحيلة متى عرف بها ؟
— أما أنت واثق بالنجاح ؟
— الثقة كلها .
— اذن ، يسرّ الملك أن يضم أرضا جديدة وغنية الى ملكه .
— على الله الاتكال .

كان أحمد الملاح العربي العالم لا يرى ، في جلاء قومه عن الأندلس ، غير حدث أتى نتيجة لما لا يجهل من أحداث التاريخ .
ومن ترك الأثر الذي تركوه هناك يظل حاضرا وان غاب . وهو ابن ماجد أحد الذين يتحمّلون عبء الحفاظ على ذلك الأثر ، فمن غير المعقول أن يتردد في تلبية دعوة « بدرو الفارس كابرال » اليه ، وهو يعلم جيدا أنه بعمله هذا انما يخدم العلم .
ولم تكن امرأته « بثينة » على رأيه .. فقد كانت عاطفية ، ولم تكن تعرف « بدرو الفارس كابرال » ، فما كاد هذا ينتهي من مقابلته لزوجها ، ويمضي حتى أقبلت على زوجها ، وقالت له :
— من الرجل الذي كان عندك ؟
قال أحمد :
— هذا أحد كبار الملاحين ، ومن أقرب المقربين الى ملك البلاد .
— وما اسمه ؟
— « بدرو الفارس كابرال » .
— وحاجته اليك ؟
— حاجته اليّ .. وأردف ضاحكا :
— لا يسلّم سرّها للنساء ، وخاصة لمن كانت مثلك .
فانتفضت بثينة قائلة :
— ماذا .. أثرثارة أنا ، لكيلا أكون في نظرك جديرة بالائتمان على الأسرار ؟
قال ، وهو مسترسل في الضحك :
— ما هذا قصدي ، يا بثينة .
— وما قصدك ؟
— قصدي هو أنك لا تقدّرين الظروف التي نحن فيها ، لا تريدين التسليم بذهاب ملكنا من هنا ، ولذا تأبين أن ترى بيننا وبين البرتغاليين أي تفاهم أو تعاون .
قالت بمرارة وتأثر :
— أتريد مني أن أتجاهل تاريخنا ، أن أتناسى أيام عزنا ومجدنا ، حين كنا نحن سادة هذه البلاد؟
ورأى أحمد دموعا في عينيها .
ولو لم يكن رجلا ، ولعقله الحكم في مثل ذلك الموقف ، لبكى بدوره .
لذا تمالك قائلا :
— لقد أراد الله لنا ذلك يا بثينة ، وليس في الخضوع لإرادة الله مذلة .. ودولتنا نحن لم تقم على السيف قيامها على العلم والقيم الروحية والانسانية ، واذا كان من الأمانة البكاء على ما بنى السيف ، فالتخلي عن تراثنا العلمي والانساني هنا خيانة .
قالت وكأنها تتراجع شيئا عن رأيها :
— لن نتخلى عن هذا التراث .
— توافقين اذن على أن نبقى جنودا مخلصين له .
— وتكون لحاجة « بدرو الفارس كابرال » اليك علاقة بهذا التعاون ؟
— ان اكتشاف « كريستوفر كولبس » العالم الجديد الذي دعوه « أمريكة » يحتل مخيلات الكثيرين من ذوي الطموح العلمي والمادي .
— ولم دعي ذلك العالم أمريكة ؟
— دعي كذلك لأن ملاحا إيطاليا يدعى « أمريكو فسبوسيو » أثبت أن ذلك العالم غير الهند الغربية التي خيل « لكريستوفر كولبس » أنه وصل اليها .
— ولكونه أثبت ذلك دعي ذلك العالم بإسمه .
— هو ذاك .
— وصاحبك « كابرال » .. أيكون من ذوي الطموح الذين يحتل العالم الجديد ذاك مخيلاتهم ؟
— أجل .
— وما يريد منك ؟
— غير مرّة حدثتك عن الأرض البعيدة التي اكتشفها ملاحونا منذ قرنين عبر المحيط .
— الجزيرة الخضراء .
— اياها .. و « بدرو الفارس كابرال » يريد أن يستعين بي للوصول اليها .
— للوصول اليها ، لاحتلالها باسمه واسم مليكه .. ووافقته على ذلك ؟
— ليس لي الا أن أوافقه .
قالت متضاحكة :
— لماذا .. أتخشى أن يعدّ رفضك اعانته تمردا على ارادته وارادة مليكه ؟
قال ، من غير أن يستفزه تضاحكها :
— لا ، لا أخشى هذا .. وانما الرسالة التي تفرض عليّ معرفتي وعروبتي تأديتها ، هي التي تحملني على أن أمدّ له يد العون .. وارادتها عندي مقدسة .

• • •

برغم ما قيل عن العالم الجديد وكثرة خيراته ، فقد ظلّ رأي « الدون مانويل » فيه ، وفي الذين يتحدثون عنه وكأنه موئل الأحلام ، كرأيه عندما ردّ « كريستوفر كولبس » خائبا على أعقابه حينما جاء يرجوه المساعدة على تنفيذ فكرته .
ليس ذلك العالم في نظره شيئا . وأوهام هي خيراته .
قال لبدرو الفارس كابرال ، على اعتبار أن اهتمام هذا الأخير بالأمر كملاح يفوق اهتمام سواه من أهل بلاطه :
— ألا قل لي ، يا بدرو .. هذه الضجة القائمة حول الأرض الجديدة التي اكتشفها « كولبس » ودعوها أمريكة ، لا أفهم حتى الآن معناها .
قال بدرو بلهجة عادية .



— يبدو يا مولاي أن تلك الأرض قارة عظيمة الاتساع وفيرة الغنى .

قال الملك ضاحكا :

— من قال هذا ؟ من عرفها ليعرف عظمة اتساعها ووفرة غناها ؟

وسكت لحظة ، ثم استدرك قائلا :

— على كل أرى أن « كولبس » أخفق في مهمته ، ولم أكن مخطئا في عدم التسليم بنظريته عندما جاءني راجيا المساعدة على تنفيذ فكرته . أما قال انه يريد الوصول الى الهند ؟

— أجل ، يا مولاي .

— وأين الهند .. أما ثبت أن الأرض التي اكتشفها جديدة ، ولا صلة بينها وبين البلد التي لا خيرات في الدنيا توازي خيراتها ؟

— من يدري ، يا مولاي ..

— من يدري ماذا ؟

— أن تكون الأرض الجديدة تلك من العظمة والغنى في الحد الذي يقال عنها . ولم يعجب الملك هذا القول .

« الدون مانويل » مخطئا، بعدم تبنيه وجهة نظر « كولبس » في ما عرض عليه ، والذين على غير رأيه مصيبون ؟

قال وقد بدت عليه علامات عدم الرضى :

— أتكون يا بدرو في عداد الذين يحلمون بالذهاب الى تلك الأرض وارتيادها ؟ ولم يكن بدرو ممن تنقصهم الحكمة . قال :

— انني في خدمة مولاي .

— أدعوك اذن الى صرف النظر عن أي حلم يراودك من هذا القبيل . عندنا الشواطىء الأفريقية والهند ، فدع الآخرين يضيعون وقتهم في البحث عن الجديد المجهول ، ولنمض نحن في درب قديمنا المعلوم الى النهاية .

واغتنم « بدرو » الفرصة قائلا :

— أيسمح لي مولاي اذن بإعداد حملة جديدة الى الهند .

قال الملك راضيا :

— لك ما تريد ، يا بدرو .. من كان مثلك مخلصا لا يردّ له التماس ، وأنا على ثقة بأنك ستعود من رحلتك موفقا باذن الله .

حمل بدرو الخبر الى صديقه « ديوغو » وقد كان هذا بانتظار أخباره ، وقال :

— لقد أذن لي مولاي بإعداد حملة الى الهند .

قال ديوغو مندهشا :

— الى الهند .. وأمريكة ؟

قال بدرو :

— لا زال مولاي غير مؤمن بما يقال عن عظمتها وغناها ، ولا يرى فائدة في إضاعة الوقت بارتيادها . ومن غير أن أسأله السماح لي بذلك دعاني الى صرف النظر عنه .

— وصرفت النظر عنه ؟

— في الظاهر حكما .

— وبعد ذلك تخالف أمر جلالته ؟

— بطريقة لا تثير غضبه .. وسنحتل أرضا أعظم وأغنى من تلك التي احتلها « كولبس » ، ونضمن باحتلالنا تلك الأرض رضاه .

قال ديوغو ضاحكا :

— وأي أرض تلك التي تقول انك ستحتلها وكأنك على معرفة بها ؟

قال بدرو ضاحكا :

— أمرافقي أنت أم لا ؟

— الى أمريكة ، لا الى الهند .

— الى أمريكة .. وسترى أي أرض عظيمة تلك التي سيرفع فيها علمنا خفاقا .

أعد « بدرو الفارس كابرال » حملته بسرعة ، وبإرشاد صديقه العربي أحمد بن ماجد ، من غير أن يدع أحدا يشعر بحقيقة قصده من اعداد هذه الحملة .

الذي يراوده يكبر ويتضخم .. يرى نفسه في أمريكة .. فـي الجزيرة الخضراء .. وأحمد بن ماجـد يعرف طريقها ، ولم يتردد في تلبية دعوته بإيصاله اليها .. فهل يصل ؟

وما صدّق أن أصبحت حملته جاهزة بسفنها المحملة بكل ما يحتاج اليه راكبوها من المؤن ، وبعدد من رجال البحر الذين تعودوا ركوب الأمواج ومجابهة الأخطار ، وفي مقدمتهم البحار أحمد ابن ماجد ، وبينهم « هيوغو » .

ولم يكن « هيوغو » بحارا ، ومع ذلك فقد كان يبدو وكأنه من أهل البحر ، لشدة توقه الى ما يتوق اليه صديقه « بدرو » من الوصول الى الأرض الواسعة التي يخفق عليها علم بلاده .

وأبحرت عمارة الحملة . وقال « بدرو » لابن ماجد :

— على الله اتكالنا ثم عليك ، يا أحمد . اننا بعملنا هذا سنخالف ارادة مولانا الملك ، ولا تجهل أنت المسؤولية المترتبة على هذه المخالفة .

قال احمد هادئا

— ان لم يكتب لنا النجاح .

— والنجاح مضمون لنا في نظرك ؟

— باذن الله .

قول أحمد: «باذن الله» الاطمئنان في نفس « بدرو » ، وفي نفس « ديوغو » في آن واحد . وقال بدرو :

— بقي أن نفكر في حيلة نبرر بها خروجنا عن عدم تقيدنا بنهيه عن ارتياد الأرض الجديدة تلك ، الأمر الذي قد يؤاخذنا عليه برغم النجاح الذي سنصيبه .

قال أحمد :

— لن نعدم حيلة لذلك .

— مثلا ؟

— سنصل غدا الى الرأس الأخضر ، واتقاء للأمراض القتالة المنتشرة هناك ننحرف بعمارتنا الى عرض المحيط ، وتدهمنا زوابع وأنواء وتيارات لم نحسب حسابها ، وتقذف بنا اضطرارا الى الأرض التي سنصل اليها . أما تكفي الحيلة هذه لتبرير موقفنا ؟

وضحك الثلاثة معا ، ضحكوا من أعماق قلوبهم ، ارتياحا الى هذه الحيلة المبتكرة .

الأيام بلياليها تمر ، والمحيط الأطلسي لا ينتهي الابحار فيه ، فما وراء مياهه ؟

من أمل الى يأس ، ومن يأس الى أمل . وأحمد بن ماجد وحده لا ييأس ، لعلمه التام بما وراء تلك المياه ، ومن أمله يستعيد كل من داخل صدره اليأس من رفاق الحملة ، الأمل .

وأخيرا .. كما ظهرت الأرض لبحارة كولبس ، بعد أن كادوا يقطعون الأمل من ظهورها ، هكذا ظهرت الأرض نفسها لبحارة « بدرو الفارس كابرال » ، فهتفوا فرحين :

— الأرض .. اليابسة .

واهتز قلب « بدرو » فرحا ، فوثب على أحمد بن ماجد ، قائلا :

— جزيرتك الخضراء ، يا أحمد .

وعانقه متابعا :

— لقد سجلّت للعلم نصرا سيذكره التاريخ .

قال ، وفي صدره غصة مكبوتة :

— ليذكر التاريخ هذا النصر ، وسواء أسجله لبدرو الفارس كابرال ، أم سجّله لأحمـد ابن ماجد ، فحسبي أنني أحمل رسالة العلم ، وبكل اخلاص أؤدي هذه الرسالة ■

الأمير شكيب أرسلان

هذا الكتاب من سلسلة « مكتبة الدراسات الأدبية » أخرجته دار المعارف بمصر ، عام ١٩٦٠ ، وهو يقع في حوالي أربعمائة صفحة من القطع الكبير .

أما الأمير شكيب ، فانني شديد الاعجاب به ، ولطالما قرأت له وقرأت عنه ، وأرى أنه جمع في شخصيته أطرافا من المجد ، جديرة بالتأمل ، قمينة بالاعجاب .

وأما مؤلف الكتاب الدكتور سامي الدهان ، فباحث دقيق واسع الاطلاع ، يتسم بحثه بالرصانة والانصاف والعمق . عرفته مرتين ، مرة في الكويت ، حيث ضمنا مؤتمر الأدباء الذي عقد هناك في ديسمبر عام ١٩٥٨م ، ومرة في عمان عام ١٩٦٧ . ولعبت المصادفة وحدها دورا في هذا اللقاء الأخير ، حيث نزلت في الفندق الذي يقطنه وفي غرفة تكاد تجاور غرفته ، وكانت لي معه هذه المرة فرصة أوسع للقاء والحديث ، وكان طبيعيا أن يحدثني الدكتور سامي عن الأمير شكيب ، وعن انطباعاته عنه ، وعن كتابه هذا الذي لم أكن قد قرأته من قبل . بيد أنني عثرت بعد لأي ، على نسخة منه في بعض مكتبات عمان ، فقد مضى على صدور الكتاب آنذاك سبع سنوات كفيلة بنفاد نسخه ، حتى ان مؤلفه نفسه لم يكن يملك منه نسخة .

وللدكتور سامي الدهان شخصية لطيفة ، مرحة جادة معا ، فيه استاذية أستاذ الجامعة ، بيد أنها أستاذية متأصلة ميالة للنقد والتمحيص ، ولحديثه طلاوة وجاذبية .

اذن ، فقد تضافرت الأسباب لكي أقرأ هذا الكتاب ، بل وأقرأه بعناية .. كما تضافرت لكي أكتب عنه من بعد .

وخرجت من ذلك بكسب جديد هو أن أتتبع كتب الدكتور سامي ، لأقرأها . كما أتتبع كتب الأمير شكيب لأقرأها .. فكيف وقد اجتمع بين يدي مؤلف لاحدهما عن الآخر ؟!

ويرجع اعجابي بالأمير شكيب منذ أن قرأت له فصولا ضافية من هوامشه على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » ، فقد بهرني باطلاعه الواسع ، وباستقصائه ، وباعطائه العلم حقه من التوفر والاشباع . ثم طفقت أقرأه ما وسعني الى ذلك سبيل أو اتسع لي وقت .

وقرأت عنه كل ما وصل الى يدي من ترجمات حياته ، وكان من ذلك كتاب الأستاذ أحمد الشرباصي عنه ، وهو كتاب جيد ، بذل فيه صاحبه جهدا كبيرا ، واستقصى الأحداث ما وسعه استقصاء .

بيد أن شخصية الأمير شكيب شخصية متعددة الأطراف والمناحي ، فهو كاتب وشاعر ، وسياسي ، واجتماعي ، ورحالة ، ومترجم ، وبحاثة ومحقق . ولذلك كانت الاحاطة بكل نشاطاته ، وايفاؤها حقها من الحديث ، أمرا بعيد المنال .. وبالتالي فكلما تعددت ترجماته ، وتنوع المعنيون بها ، كان ذلك أكثر فائدة لتاريخه وتاريخ العصر الذي يعتبر الأمير شكيب أحد مشاهير رجاله .

والدكتور سامي الدهان ، عرف الأمير شكيب شخصيا ، واتصل به عن كثب ، فهو يقول في مقدمة كتابه « فقد لقيته في باريس وطال لقاؤنا . » ولست أشك في اثر هذا اللقاء ، وقيمته في الترجمة الضافية التي كتبها الدكتور عنه .

وقد قسّم الدكتور سامي كتابه الى أقسام ثلاثة . أولها يختص بالحديث عن عصر الأمير شكيب ، وعن حياته ، وثانيها عن أدبه وبيانه ، وثالثها ، عن آثاره ومؤلفاته .

وقد أعطى كل قسم حقه من الدرس والفحص ، بل لقد خيل اليّ أنه أطال في الحديث عن عصر الأمير شكيب بأكثر مما يستدعيه تصوير تمهيدي للعصر ، يلقي عليه الضوء ولا يغمره به . ولكن الدكتور سامي رجل معطاء .. ولهذا فقد أفاض في الحديث عن عصر الأمير شكيب وعن لداته ، وأشبع البحث بحيث وصلت صفحات هذا القسم مائة صفحة . وكان حديثه عن سوريا غدقا ، على اعتبار أن الأمير شكيب حينما ولد بلبنان ، كان لبنان « متصرفية تابعة في أمورها العسكرية الى مشير العرض الهمايوني الخامس

حَيَـــاتُـهُ وَشِعْـــرُهُ

تأليف : الدكتور سامي الدهان
عرض وتعليق : الأستاذ عبد العزيز الرفاعي

من فرق الجيش العثماني ، الذي مركزه دمشق » ، كما ورد في هامش أول صفحة من صفحات القسم الأول من كتاب الدكتور سامي . ومن هنا نفذ الى الحديث عن سوريا حديثا مستفيضا لا أشك أن له فائدته وقيمته . ولا تثريب عليه في ذلك ، فقد كانت الشام وحدة واحدة تربطها كل روابط الوحدة ومقوماتها ، ولكني كنت أود ، مع ذلك ، أن يعنى الدكتور عناية خاصة بإلقاء الأضواء على مسقط رأس الأمير شكيب . ومن الانصاف أن أقول أنه قد صور الوضع الثقافي والاجتماعي والسياسي في لبنان ، ولكنــه أتى بما أتى به في عرض الحديث عن سوريا ككل ، طبقا لما أسلفت.

وقبل أن أزايل الحديث عن هذا القسم ، أحب أن أشيد بالفصل الرابع منه ، حينما تحدث الدكتور عن حياة الأمير ، فقسمها الى مراحل أربع ، متخذا أهم الأحداث المؤثرة في حياته حدودا لتلك المراحل . ويعتبر هذا الفصل تلخيصا وافيا دقيقا بارعا لترجمة حياة أمير البيان . ومن هذا الفصل الموجز نستطيع أن نضع أيدينا على الأسباب التي فتحت للأمير أبوابا شتى مــن المعرفة ، والصلات والاتجاهات .

فلقد كان اتصاله بالامام محمد عبده مثلا ، وهو دون العشرين ، أحد تلك الأسباب .. فلقد أحب الفتى الامام الشيخ ، وأحب دروسه وحضرها ، وجلس اليه مجالس خاصة ، ولحق به الى مصر حينما غادر الشيخ لبــنان اليها ، فواصل اجتماعه به ، والأخذ عنه ، واتسعت آفاقه في مصر ، بعد أن اجتمع بنخبة من رجال الفكر والسياسة والأدب فيها ، وكانت مصر آنـذاك تغص بالرجال الفطاحل في شتى المجالات .

بيد أنني أقف في هذا الفصل وقفات قليلة لا تقلل من أهميته . ذلك انني لم أجد في هذا الفصل ، ولا فيما قبله ولا بعده من فصول شيئا عن صلة الأمير بكل من شوقي ، وبالشيخ رشيد رضا .. ولكم وددت أن يشير الدكتور سامي الى كل ذلك ، فلقد وضع الأمير كتابا أو كتيبا عن كل من شوقي والشيخ رضا . ومع أن المؤلف أسهب في الحديث عن ذلك في القسم الثالث من كتابه ضمن الحديث عن آثاره ومؤلفاته بما فيه الكفاية ، الا أنه وقد أورد في الفصل الرابع أبرز ملامح حياة الأمير شكيب .. فان من أبرزها ولا شك صلته بكل من شوقي وبالشيخ رضا ، وارتباطه بهما بصداقة وثيقة حفزته لأن يؤلف عن كل منهما رسالة ضمنها ذكرياته عنه .

وتتجلى الشخصية الناقدة لدى الدكتور سامي في القسمين الثاني ، والثالث — وهو الأخير — حينما يتحدث عن شعر الأمير شكيب ونثره وثقافته ، وحينما يتحدث عن آثاره ومؤلفاته ، حيث يقف موقف الناقد الحيادي المنصف ..!

ويرى الدكتور سامي ، أن شعر الأمير وقف عند الحد الذي وصل اليه صاحبه وهو في العشرين من عمره ، حيث انصرف عنه الى النثر . وفي الفترات التي كان يعود فيها الى الشعر ، وذلك على اثر بعض المناسبات الطارئة من مساجلة أو رثاء ، لم يستطع الأمير أن يبتدع معاني جديدة ، ولكنه كان يعيد معانيه القديمة التي سبق ان طرقها في عهد الشباب الباكر ، ليصوغها صياغــة جديدة صقلتها التجربة والثقافة .

ومالي لا أورد ما قاله الأمير شكيب نفسه عن شعره ، وما قاله عنه الدكتور الناقد ؟

قال الأمير شكيب في كتابه « شوقي أو صداقة أربعين سنة » في النص الوارد في كتاب الدكتور الدهان :

« سألني مرة ابراهيم المويلحي ، الكاتب المشهور ، عندما اجتمعنا في الاستانة سنة ١٨٩٠ ، فقال لي : أيهما أفضل عندك ، النظم أم النثر ؟ فأجبته لا مقايسة عندي بينهما ، اني أفتخر أن أكون كاتبا ، وأستحي من أن أكون شاعرا . فاستحسن المويلحي هذا الجواب ، الذي لا أشك أنني بالغت فيه ، ولكنه كان يعرب عن ذات صدري ، لأنني طول حياتي لم أحاول أن أكون في الشعر سباق غايات وطلاع أنجد ، على حين

كنت أرى منتهى السعادة في الدنيا في أن أكون من الكتاب المعدودين . »

ويقول معتذرا حينما يرجع الى الشعر في مناسبة رثاء عبد الله فكري ، كما ورد في كتاب الدكتور سامي :

وكنت مللت الشعر حتى كرهته
وأصبح عندي في عداد المحارم
الى أن قضت أوصافه برثائه
فأصبح عندي اليوم ضربة لازم

وهنا يعقب الدكتور سامي ، قائلا :

« فأعاد علينا كرهه للشعر وتحريمه على نفسه ، حتى قضى الوفاء بالعود اليه والانشاد فيه . وهذا سبب ، في رأينا ، من الأسباب التي وقفت بشكيب عند مرحلة الشعر التي وصل اليها في العشرين من سنيه أو بعيدها بقليل ، فقد بلغ الشاب من قبل مرتبة في المتانة الشعرية قمينة بأن تجعل منه شاعرا كبيرا وسيدا في حلبة النظم ، ولكن نفسه كانت تميل عنه الى النثر . ولذلك عاش يسترجع صوره القديمة في الشعر على معان جديدة توجيها ثقافته وسنه ، فكأنه كان يحيا على أمجاد ماضيه ، وما كان الماضي طويلا . »

بيد أنه انصافا منه للأمير ، يستشهد ببعض شعره ، ويورد أبياتا جميلة من مرثيته في شوقي ، ويعرب عن اعجابه بها ، ويقول انها من قلائد شعره .. وانها حقا لكذلك .

أن أتساءل .. ألم يكن للأمير شكيب شعر عاطفي ؟ لم يحدثنا الدكتور بشيء عن هذا الموضوع ، رغم أهميته في ترجمة الأمير .. فهو يفضي بلا شك الى ترجمة حياة قلب أمير البيان .

أما الحديث عن نثر الأمير شكيب ، فهو بلا شك من أهم ما يتحدث عنه الدكتور المؤلف . ذلك ان الأمير ، هو أمير البيان الى جانب امارته الموروثة : فما مدى تقييم بيانه لدى الدكتور الناقد ؟

لقد تقيد الأمير بالسجع حينا ، وانطلق مترسلا معظم الأحايين . فكيف هو في حالتيه ؟ وكيف هو في تلك الرسائل التي يكتبها على سجيته .. وما أكثر ما كان يكتب منها الأمير !

لقد استعرض المؤلف الفاضل جميع ألوان نثر أمير البيان ، وتعرض لتأثره بطريقة النثر في عهد نشأته ، وتقليده للفحول في السجع ، والمزاوجة بين الجمل .. الا أن الأمير كان من الحصافة بحيث لا يستعمله الا في مواضع لا يشدد عليه فيها النكير ، كمقدمات بعض كتبه . بيد أن للأمير أسلوبه الآخر الذي لا تكلف فيه ولا التزام ، وعنه يقول الدكتور : « من السهل الذي يمتنع على الناس حينا ، ولا يمتنع أحيانا .. يختلف فيه وفاق موضوعاته وأغراضه ، حتى لكأنه يكتب في أسلوب الحديث العادي والكلام الموصول حين يحكي عن نفسه ووقائع أيامه ، وما حدث له في عمره ، في سلاسة جميلة . ومن الظلم أن نجعله في المدرسة التقليدية لكل كتاباته ، ولكنه دخل هذا الباب من النثر الفني ، وخرج منه منتصرا مظفرا كما انتصر الفحول القدماء سواء بسواء ، فهو في نثره كما كان في شعره .. يقلد أحيانا ، ويتحرر حينا ، ويأتي في كليهما بما رفعه الى مستوى البيان الرفيع . »

وقد أورد الدكتور نماذج مختارة من كتابات أمير البيان ، أحب أن أورد منها هنا ، لأكثر من حافز ، هذين النصين :

قال يصف مياه جدة في كتابه « الارتسامات اللطاف » :

« ولم يقع بصري على شيء يشبه مياه بحر جدة في البهاء واللمعان ، كنت كيفما نظرت يمنة أو يسرة أشاهد خطوطا طويلة عريضة في البحر ، أشبه بقوس قزح في تعدد الألوان ، وتألق الأنوار ، من أحمر وأزرق وبنفسجي وعنابي وبرتقالي وأخضر .. الخ . ولا فرق بين هذه الخطوط وبين قوس قزح ، سوى أن هذه الخطوط مستقيمة وان قوس قزح مقوسة ، وان هذه في السماء وهاتيك في الماء ، وقد تشبه هذه الخطوط ذيول الطواويس ، لا فرق بينهما الا في كون هذه الذيول المسبحة على وجه البحر عظيمة جدا تمتد مئات من الأمتار ، وبعرض عشرات منها . »

ويقول في وصف موقف عرفات :

« فقد أقبلنا عليها غلسا آتين من منى ، فكانت أشبه بسماء في كواكبها وطرائقها منها بسهول وهضاب في خيامها وقبابها المضروبة ومصابيحها المعلقة ونيرانها المشبوبة ، فكان منظرا قيد النواظر ، لا يشبع منه الرائي تطلعا ، ولا يزداد به الا ابتهاجا . وليست عرفات في النهار بأقل حسنا وجلالا في تموج جموعها ، وتراص قبابها ، ولا سيما في مناظر الخشوع التي تأخذ بالألباب ، ومسامع الأدعية التي ليس بينها وبين الله حجاب .. »

أما القسم الثالث من أقسام الكتاب ، الذي خصصه الدكتور لآثار الأمير شكيب ومؤلفاته ، فقد بذل فيه المؤلف جهدا قيما مشكورا ، بحيث توفر على دراسة المعروف من مؤلفات الأمير شكيب ومترجماته ومحققاته ، وبحيث أعطى للقارىء الطلعة ، بحثا مشبعا مفصلا عن كل كتاب على حدة ، ناقدا ودارسا ومعرفا .

ولم يغفل مخطوطات الأمير ، وما لم ينشر من مؤلفاته . ومن العجيب حقا في هذا العهد الذي نشطت فيه المطبعة العربية ، نشاطها الجديد ، ألا يكون ثمة نصيب من نشاطها لمؤلفات الأمير شكيب التي لم يقيض لها الظهور بعد .. ومنها ما ينتظره القراء ، كالأجزاء المتممة لكتابه عن الرحلة الأندلسية « الحلل السندسية » ، ومنها مذكراته التي أودعها صفيه الشيخ أمين الحسيني .ولقد كان بودي أن يخصص المؤلف الفاضل فصلا بذاته لتراث الأمير الذي لم ينشر بعد .

وأخيرا .. فان كتاب الدكتور سامي الدهان ، كتاب قيم بحق ، ومن خير ما يقرأ في ترجمة أمير البيان . ■

الحركة الأدبية في العالم العربي

* أصدر الدكتور ناصر الدين الأسد طبعة ثانية مراجعة منقحة من « ديوان قيس بن الخطيم » وهو من فحول شعراء الجاهلية المجيدين . ولقد تبحر الدكتور الأسد في التوطئة لهذا الديوان ، وفي شرح شعره وتبيان مناسبة كل قصيدة ، وتخريجها والتعليق عليها ، وأضاف الى هذا الجهد فهارس مبوبة ، فجاء هذا العمل قمينا بالتقدير .

* ومن كتب التراث التي ظهرت أخيرا ، الجزء الرابع من معجم « تاج العروس من جواهر القاموس » للسيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، وقد حققه الأستاذ عبد العليم الطحاوي ، و « مخطوط كتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل » لمحمد بن أحمد ابن اسحاق المعروف بالوشاء ، وهو من تحقيق الأستاذ يوسف يعقوب مسكوني . وقيد الطبع طبعة ثانية مزيدة من كتاب « رسائل الرافعي » وقد جمع فيه الأستاذ محمود أبو رية طائفة كبيرة من رسائل العلامة الراحل مصطفى صادق الرافعي اليه ، وعلق عليها تعليقات أدبية تبرز قيمتها للدارسين والباحثين .

* أصدر الدكتور يوسف عز الدين كتابا عنوانه « مخطوطات عربية في مكتبة صوفيا الوطنية البلغارية » يعرف بالمخطوطات العربية المودعة في تلك المكتبة .

* من الدراسات الاسلامية التي صدرت أخيرا : كتاب « في الفلسفة الاسلامية — منهج وتطبيق » للدكتور ابراهيم بيومي مدكور ، والجزءان السابع والثامن من « التفسير القرآني للقرآن » للأستاذ عبد الكريم الخطيب ، و « الاسلام والأسرة والمجتمع » للدكتور محمد سلام مدكور ، و « روح الصلاة في الاسلام » للأستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة ، و « الاسلام والحياة الزوجية » للأستاذ عثمان السعيد الشرقاوي .

* من كتب السير والتراجم التي صدرت أخيرا هذه الطائفة « حافظ ابراهيم شاعر النيل » للدكتور عبد الحميد سند الجندي ، و « أمين الريحاني » للأستاذ عيسى ميخائيل سابا ، و « أبو تمام » للدكتور طه الحاجري ، و « جرير — حياته وشعره » للدكتور نعمان محمد أمين طه ، و « الزهاوي وثورة في الجحيم » للدكتور جميل سعيد . كذلك صدر للمرحوم الأستاذ أحمد سامح الخالدي كتاب « أهل العلم والحكم في ريف فلسطين » ، وأشرف على إخراج الكتاب الأستاذ محمود العابدي .

* يصدر قريبا للأستاذ أنور الجندي كتاب في التراجم عنوانه « أعلام وأصحاب أقلام » ، كما فرغ الأستاذ محمد عبد الغني حسن من وضع كتاب جديد عن « الشريف الرضي » .

* من الدراسات الأدبية الجديدة « مجمل تاريخ الأدب التونسي » للعلامة حسن حسني عبد الوهاب ، و « المصطلح في الأدب الغربي » للدكتور ناصر الحاني ، و « درتان فريدتان في العلوم اللغوية والعلوم الخلقية ؟ » للأستاذ حبيب الخوري ، و « المكتبات العربية العامة ونصف العامة في العراق وسورية ومصر في القرون الوسطى » وهو بالفرنسية من تأليف المرحوم الدكتور يوسف العش . و « شوقي وأمارة الشعر » للأستاذ عبد الرحيم محمد علي ، و « التوزيع اللغوي الجغرافي في العراق » للدكتور ابراهيم السامرائي ، و « قراءة جديدة لشعرنا القديم » للأستاذ صلاح عبد الصبور ، و « الأدب الجزائري المعاصر » للدكتورة سعاد محمد ، و « التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل » وهو في جزئين للأستاذ محمد عبد العزيز النجار .

* في الأدب الروائي بفنونه المختلفة ظهرت مجموعة من الكتب منها ، المجلد التاسع من « مسرحيات شكسبير » ويشتمل على مسرحية « هنري الخامس » وقد ترجمها الدكتور محمد عوض محمد ، ومسرحية « ضجة فارغة » وقد ترجمها المرحوم الأستاذ عباس حافظ . وقد راجع الترجمة المرحومان الأستاذان محمد شفيق غربال ومحمد بدران وصدر باشراف الدكتور طه حسين .

* وأصدر الفنان الأستاذ زكي طليمات كتابا جديدا عن « التمثيل والتمثيلية » يعرف فيه بالمسرح العربي . كما صدرت مجموعات من الأقاصيص هي « أفندي في المدينة » للأستاذ محمد سالم ، و « نجمان يهويان » للأستاذ مصطفى الخش ، و « الأمس المشنوق » للأستاذ كامل حسن المقهور .

* من بين الكتب الجديدة التي تعالج فنون الصحافة صدرت هذه الطائفة « صحافة الغد » للأستاذ هشام توفيق بحري ومراجعة الدكتور خليل صابات ، و « الاعلام والدعاية » للدكتور عبد اللطيف حمزة ، و « الرأي العام وقوى التحريك » للأستاذ سعد الدين خضر .

* من الدواوين الشعرية التي ظهرت مؤخرا هذه المجموعة « هذيان قلب » للأستاذ محمود خليل المليجي وقد قدم له نثرا الشاعر الأستاذ عزيز أباظة وشعرا الأستاذ صالح جودت ، و « ليل الصب » للأستاذ محمد علي حسن ، و « العيون الخضر » للأستاذ عمر أبو قوس ، و « شعر خفاف بن ندبة » وقد حققه الدكتور نوري القيسي ، و « ديوان السيد موسى الطالقاني » وقد حققه الأستاذ محمد حسن آل الطالقاني . كما أصدر الأديب المغربي الأستاذ عبد الله كنون كتابا من مختارات الشعر أسماه « جونة العطار من طيب القرائح في الأشعار » .

* من الدراسات التاريخية والجغرافية الجديدة التي صدرت مؤخرا « فصول من تاريخ المدينة المنورة » للأستاذ علي حافظ ، و « تاريخ سامراء » للأستاذ يونس ابراهيم السامرائي ، و « تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا الى نهاية حكم مدحت باشا » للدكتور عبد العزيز سليمان نوار ، و « جغرافية الوطن العربي » وهو طبعة ثالثة للدكتور فيليب رفلة والأستاذ أحمد سامي مصطفى . وتصدر قريبا طبعة جديدة من كتاب « مصر الاسلامية في العصر الفاطمي » للعلامة الأستاذ محمد عبد الله عنان .

* من كتب التربية وعلم النفس التي ظهرت مؤخرا هذه المجموعة « التربية التجريبية والبحث التربوي » للدكتور عبد الله عبد الدائم ، و « تاريخ التربية » للدكتور محمود عبد الرزاق شفشق ومنير عطاالله سليمان ، و « الأمراض النفسية الشائعة » للأستاذ معمر خالد الشابندر .

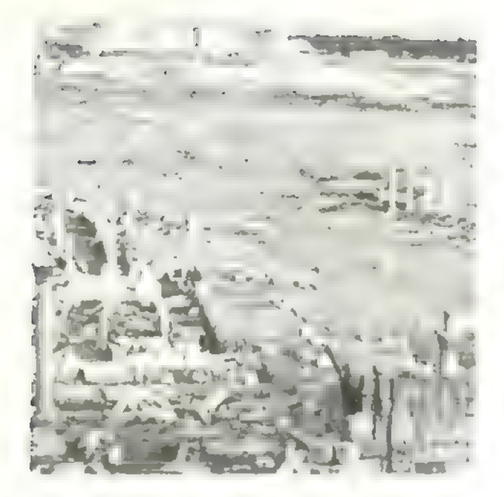
* أخرج الدكتور جمال مرسي بدر دراسة حقوقية موسعة في موضوع « النيابة في التصرفات القانونية » .

* ظهر مؤخرا كتابان في العلوم الرياضية هما « المراجعة — الأصول والمبادىء » للأستاذ علي محمود عبد المتعال ، و « المسطرة الحاسبة » للدكتور عدنان مصطفى .

* أصدر معهد البحوث والدراسات العربية مؤخرا كتابا بعنوان « عبد الوهاب عزام ، في حياته وآثاره الأدبية » ، وهو مجموعة محاضرات ألقاها الدكتور محمد زكي المحاسني على طلبة قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية .



جانب من الشارع الرئيسي لمدينة تدمر وبقايا ال ٣٧٥ عموداً المشادة على النمط الكورنثي .



منظر عام لمدينة تدمر الأثرية ، وتبدو في أقصى الصورة اطلال هيكل « بعل » الكبير .

هنالك بقاع عديدة من العالم ، تحمل في أجوافها أو على أديمها مخلفات أثرية تمثل معالم لمدنيات سادت ثم بادت ، وحضارات تعالت ثم اضمحلت ، وقد تكون هذه المخلفات الحضارية والمدنية ممثلة في خرائب وأطلال ، أو في مبان وهياكل ، أو في زخارف أو نقوش . ومن خلال هذه المعالم تتكشف للإنسان البشري تلك المسيرة الطويلة التي مرّ بها ، والتطورات والتغيرات التي صادفته خلالها فأثرت في تقدمه ورقيه ، وفي تمدنه وتحضره .

مدينة تدمر ، أو مدينة النخيل ، كما أطلق عليها الرومان ، من المدن العربية العريقة التي كانت لعصور خلت ، مسرحا لأحداث تاريخية رائعة شهدتها حضارات ومدنيات ما زالت بقايا معالمها ماثلة للعيان حتى الآن .

فبعد مرور ستة عشر قرنا ، أخذت هذه المدينة التاريخية تشهد نوعا آخر من القوافل التجارية ، مغايرا لذلك النوع الذي اعتادته قبل تلك الحقبة الطويلة ، والذي كان ممثلا في قافلة من الابل مثقلة ظهورها بأحمال الحرائر والطيوب ، شاقة طريقها عبر الصحراء السورية بخطى وئيدة متثاقلة .

وهذا النوع الجديد من القوافل يتمثل في أرتال من السيارات والحافلات تنطلق من حمص وحلب ودمشق عبر المفازات متجهة صوب تدمر جالبة اليها مئات السياح الذين تحدوهم الرغبة في مشاهدة أطلال هذه المدينة الأثرية ، نظرا لما كانت تنعم به من أسباب القوة والجاه في ظل دولة كانت تعد من أقوى الدول في الشرق الأوسط آنذاك ، ولكونها كانت ملتقى القوافل التجارية الهامة .

وقد أطلق الرومان اسم « مدينة النخيل » على واحة صغيرة تعرف باسم تدمر يرجع عهد تأسيسها الى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد . وقد ظلت هذه الواحة زهاء ألف عام مجهولة المعالم يكتنفها الغموض والسكون الى أن جاء الملك سليمان فأدرك أهميتها الاستراتيجية وطاقاتها الاقتصادية ، وكذلك موقعها على أقصر طريق بين النهرين والبحر الأبيض ، فحصنها ووسع أجزاءها .

ومع نهوض الرومان والفرس الفرثيين ، نهضت تدمر وتطورت بشكل مطرد حتى غدت مركزا مهما للتبادل التجاري بين هاتين الدولتين المتخاصمتين . وفيما بعد أصبحت تدمر دولة تابعة للحكم الروماني ، ومن ثم تحت سيطرة الامبراطور « حدريان » . وفي عام ٢١٢م نالت ثقة الرومان ، فنمت بذلك علاقاتها التجارية مع الصين والجزر الهندية ، مما جعلها تتمتع بمركز تجاري ومالي على جانب كبير من الأهمية ، فاتسعت رقعتها وتزايد عدد سكانها الى أن بلغ نحو ٣٠٠٠٠ نسمة . وقد عرف أهلها بمهارتهم في تشييد المعابد ، وانشاء الطرق ، وبناء القصور الجميلة .

على أن الأمور في أوائل القرن الثالث الميلادي تغيرت وتبدلت عما كانت عليه ، ففي تلك الفترة — أي في عهد أذينة وزوجه زنوبيا — تمكنت تدمر من مد سلطانها وبسط نفوذها على الشرق بكامله . فلمع نجم أذينة وذاع صيته ، كما مثل خلفاؤه دورا مرموقا في تاريخ المدينة أمثال « خيران » الذي لقب بأمير تدمر .

ولما هزمت فارس الامبراطور « فاليريانوس » وأسرته ، هب أذينة لمقابلة « سابور اردشير » أحد ملوك الساسان ، وأجبره على التقهقر ثم على الانسحاب عبر الفرات . ووجد فيه الامبراطور « غاليانوس » خير من يعهد اليه بقيادة الجيوش الرومانية في سوريا ، فسار أذينة على رأس القوات وأخذ يستعيد بلاد ما بين النهرين حتى وصل الى المدائن ، فأنعم عليه « غاليانوس » بلقب امبراطور فخري وجعله قائداً لجيوش روما في الشرق ، وذاع صيت أذينة في العالم الروماني ، ومع اعترافه بسلطة الامبراطور كان يدعو نفسه ملكا . فحكم الشرق الروماني بأسره ما عدا مصر وآسيا الصغرى ، ومات مقتولا في حمص هو وابنه « خيران » في ظروف ظلت غامضة .

وتسلمت من بعده زنوبيا أعباء السلطة باسم ابنها « وهب اللات » . وكانت هذه الملكة من الجمال بحيث وصفها المؤرخ الروماني « تريبلوس بوليوس » بأنها تفوق « كليوبترا » جمالا على أن التاريخ لم يمجد « زنوبيا » لجمالها ، بل من أجل حكمتها ومقدرتها اللتين تفوقتا على الجمال ، اذ كانت على جانب كبير من الدهاء والحنكة . وعلى مرّ السنين ، ولا سيما بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ، تداعت أركان هذه الدولة ، وتقوض صرحها وتضعضعت مكانتها التجارية .

تظهر في هذه الصورة بقايا قوس النصر (الى اليمين) والأعمدة الشاهقة (الى اليسار) وهي تميز شارع مدينة تدمر الرئيسي ، بينما يبدو في مؤخرة الصورة القلعة العربية التي قام ببنائها أحد الأمراء اللبنانيين في القرن السابع عشر الميلادي .

جانب لأحد المدارج الفسيحة التي كان التدمريون يقيمون عليها حفلاتهم الشعبية ومراسيمهم الدينية .



هيكل « بعل شمايم » الصغير ، وهو من أجمل المعالم الأثرية في مدينة تدمر .

وتشير المصادر التاريخية الى أنه في عام (١٢هـ – ٦٣٣م) فتح خالد بن الوليد تدمر صلحا . وقد لعبت هذه المدينة دورا مرموقا في العهد الأموي ، فقد بنى الأمويون في تلك الأرجاء ثلاثة من قصورهم الضخمة هي : قصر الحيرة الغربي ، وقصر الحيرة الشرقي ، وقصر الرصافة . وفي عام ١٢٧هـ – ٧٤٥م نشبت ثورة ضد مروان الثاني آخر خلفاء الأمويين فجاءها بجيش لجب وأخمد الثورة ودك حصون المدينة . وخلال القرن الخامس عشر تعرضت تدمر لسلسلة من غزوات المغول البربرية بقيادة « تيمورلنك » ، الى جانب عهد من هـزات ارضية عنيفة ، فاندثرت وطمست معالمها الرمال ، ولم يبق فيها سوى نفر من المزارعين والبدو الذين حطوا رحالهم ونصبوا مضاربهم حول ما كان يعرف بالساحة الكبيرة لهيكل « بعل » .

، على الرغم من تجشم السواح مشاق السفر الطويل عبر الصحراء لرؤية هذه المدينة ، فانهم يؤخذون بآثارها الممثلة في تلك البروج الشاهقة التي تمتد في الأفق الى علو نحو (٢٥) مترا ، والتي يحتضنها واد مكتظ بالقبور . وهذه البروج هي أجزاء من هياكل ضخمة ثلاثة ، شيد أحدها ليضم رفات موتى التدمريين ، ويمثل الثاني أحـد الأضرحة المشادة تحت الأرض ، والثالث معبد يرتفع بمقدار علو طابق واحد فوق الأرض . وعلى مدارج تلك البروج الشاهقة كان التدمريون يقيمون حفلاتهم الشعبية ومراسيمهم الوثنية .

ومن بين المعالم الأثرية التي اشتهرت بها تدمر أيضا الخرائب والأطلال المتناثرة هنا وهناك بشكل يؤخذ به الزوار والسواح ، مما يدل بوضوح على أن مدينة تدمر كانت في وقت مضى على جانب كبير من الروعة والجمال . وفي وسط



تمثل هذه الاطلال المتناثرة معالم بعض المباني الأثرية التي اشتهرت بها تدمر . تصوير : توم وولترز

ساحة كبيرة مربعة ، تقدر مساحتها بنحو ٢٠٠ × ٢١٠ أمتار مربعة ينتصب هيكل « بعل » الكبير الذي يرجع تاريخ بنائه الى القرن الأول الميلادي . وعلى مقربة من فندق « زنوبيا » الذي ينزل فيه السواح ، يربض هيكل آخر صغير يعرف بهيكل « بعل شمايم » الصغير ، الذي ينحدر من أصل فينيقي . ويعتبر هذا الهيكل رغم صغره ، من المعالم الأثرية المشهورة في تدمر .

ولعل أبرز المعالم التي تميز شارع تدمر الرئيسي ، قوس النصر الذي يقع على منتصف الطريق الممتد بين الهيكلين الآنفي الذكر . ويمتد على محاذاة هذا الشارع الذي يبلغ طوله نحو ١٢٠٠ متر وعرضه ١٢ مترا ، ١٥٠ عمودا يبلغ ارتفاع كل منها نحو عشرة أمتار . وهذه الأعمدة الكورنثينية الطراز ، والتي تتسم بنسق هندسي جميل ، هي ما تبقى من أصل ٣٧٥ عمودا كانت تعد من أروع الآثار القديمة الأخاذة في الشرق الأوسط .

وعلى مقربة من شارع مدينة تدمر الرئيسي ، تتناثر أطلال بعض المباني والقصور الأثرية ، وخرائب المعسكر الذي بناه « دياكلوثيان » في القرن الثالث الميلادي ، والقناة المائية التي شيدها « جوستنيان » في القرن السادس . وهكذا فان مدينة تدمر تعد في نظر خبراء الآثار ثانية مدينة أثرية في الشرق الأوسط بعد « البتراء » التي تقع في الأردن ، وتعرف بالمدينة الوردية . ■

اعداد : عيسى مسلم



خرب وآثار تحكي معالم مدينة تدمر التاريخية



عشبة "الكحل" ذات الأزهار الصفراء والحمراء، ويكثر وجودها
في سهول البرية الشمالية (راجع مقال زهور الصحراء)